جمال الغيطاني

الزويل

مكتبة مدبولي

جمال الغيطاني

الزويل

مكتبة مدبولي

.. ال.. ب.. ح.. ر..

وصلنا بداية العالم، عبرنا الصراط، شربنا اللون الازرق، نلون به نخاعنا، صحنا، زعقنا، رمينا امتعتنا فوق الرمال. احتضن بعضنا بعضا.. صاح، لم أحبك من قبل كما أحبك الآن يا اسماعيل، ضحكت، ضحكت، ضحكنا، جرينا نحوه، في موجه يذوب تعب الرحلة الطويلة، ماؤه المالح يتدفق، يملأ روحينا، قلت، عندي الدهان السحري الذي قرأت عنه في الف ليلة، ندهن اقدامنا، يصبح العالم كله قطعة يابسة، لا يبلعنا الماء، نمشي في اتجاه الشمس، ضحك فتحي، عيناه تبرقان، بحر أزرق عميق الزرقة واسمه الاحمر، قلت ربما أضاء الليل بنور احمر، شقت يده الهواء الطري، فراغ أبريل العذب، الماء المثلج في قلب أغسطس، توقفت فجأة، تصلب جسمي، فمي مزموم.. فتحي.. البحر من أمامنا والجبل من ورائنا.. هيه.. هيه.. الى الامام.. عذوبة المياه، بحر يفيض رقة كأنثى، العمق، أي لون أزرق!! خلفنا تعلو الصخور تثقل كل منها الأخرى. قلت لطول المسافة التي قطعناها من قنا حتى هنا، ظننت والله ان الدنيا كلها صخور وحجارة، فقدت الامل في المياه، زعق فتحي، أرجوك.. أرجوك يا اسماعيل ان تثق في المياه، في زرقة

البحر ، أصغيت ، الصخور لها آذان ، عيون ، الارض مليئة بعروق يجري فيها دم ، أخاف عليها من خدش ، عند اندفاع السيارة. الطريق ثوب طويل من قماش أسمر نطويه ، صخور الجبل ، أشكالها غريبة ، تتغير ، تتخذ هيئة رجل ، وجهه منبعج ، قال السائق : تمرح الارواح في الليل ينادي بعضها بعضا .. ضحك فتحي .. هل هذا معقول!! توجد أرواح!! نظرت اليه ، يحاور الموج المتعب ، مرة وقفنا عند بحر الاسكندرية ، سأل: هل الموجة واحدة لا تتغير؟ يعني ، هذه الموجة التي تصدم الصخر هنا هي هي التي بدأت من اليونان ، قبرص ، قلت أسئلتك سخيفة . غير انني حرت مثله ، نظرت امتداد الساحل الموحش المقفر ، أنا اسماعيل: هو فتحي .. صاحبي .. العالم كل ما حولنا .. يحاور الموج ، يمد حذاءه ، لن تدركه المياه ، يتراجع مسرعا الى الخلف ، زعقت ، يجب أن نتخذ عددا من القرارات الهامة .

التفت .

سنلف العالم ..

العرق يرشح من صدره ، ملصقاً قميصه بلحمه ..

نبلغ خط الاستواء .. نعايش الزنج ..

ندور حول رأس الرجاء الصالح .. نعشق بنات كيب تاون .

نتوه في مدغشقر ..

نأكل تفاح الشام ..

نغني عند عبورنا الجبال الى نيبال ..

ندوب في أوروبا ، شارعا فشارعا ، نسمع الموسيقى في المسارح

الكبيرة ، كأننا من علية القوم ، ندبر الألب نجوب القارات ، نوقف العربات ، نهدى الزهور للبنات ، نعبر الاطلسي . كارولينا ، باسادينا .. كاليفورنيا ، هافانا ، ونمشي تحت الثلج فى طرقات مونتريال . العالم واسع ، وكما طفنا مصر .. جبناها من أعلى إلى أسفل بالطول .. بالعرض .. نرى العالم ..

توافقني على هذه القرارات .. الفرامانات . بالاجماع .

رفع يده ، فرد أصابعه العشر ، وثب الامواج ، سمعنا الهدير المولى بين الجبال في السماء الرجراجة ، فوق البحر سرحت عيناي ، أي حدقتان تلوحان ؟ قرص شمس ينسحب من وراء غمام ، سرب جراد يعلو بطيئا فوق الافق ، أي وجه ، أي ذكرى رفيقة ! فجر خريفي ، حادة ، صفعة مفاجئة ، أياد مغطاة بقفاز سميك تمسك شرايين رئتي ، فتحي .. احب منتهى .. انا احب منتهى .. احملها معي فى البلاد البعيدة . اسمع .. انا لا أطيق .. نصف حديثك من القاهرة الى هنا عن منتهى .. منتهى .. الا تذكرها بينك وبين نفسك أبداً ؟

قال فتحي :

أنت تستعذب الألم ..

يصغي الجبل ، تنشق الأرض قال فتحي :

أجّل قراراتك الخاصة بمنتهى حتى نصل قرية المنجم .

هبت برودة خفيفة ، مثقلة بوحدة العصر ، آثار اقدامنا ، أحذيتنا الضخمة فوق الرمال ، أجمع مائة قوقعة صغيرة ، كل واحدة في حجم الأخرى تماما ، أصنع منها عقدا طويلا بديعا أعلقه .. أعلقه

لن؟ عيناها تطلان عليّ من مكان خفي هنا، تدركاني، تعرفان أفكر فيه لكن أين هي! حتى لو جاءت الآن، ألقاها أمامي ع نتوء الأرض هذا، بلامس حذاؤها حذائي، أي بعد، أ عمق سحيق! لو وضعت نقطة مكان وقوفي، نقطة هناك، الخ المستقيم أقرب المسافات بين نقطتين، كم يبلغ طوله؟ في أي زم أعبره، حتى لو اعتليت البراق فلن نلتقي، لو ربطت روحي إ ساق الريح لن أنفذ إليها، لن تعرف طريقها إليّ. آه لو أسافر ع الزمان، أقطع الأيام، السنين.. شخص آخر قوي تمطى داخلي يدفع ضلوعي، لم أسافر مئات الكيلومترات، كل ما تركته، بيسا ابي، منتهى، المدينة، وراء هذا الجبل، أطلع فوقه، أرى كل شيء أنام الليلة في سريري.

السائق كثير الثرثرة..
فتح اعيننا على فرصة هي قمة ما في رحلتنا..
أي البلاد يحاذينا الآن على الضفة الاخرى للبحر؟
ربما ينبع، ربما جدة عندك على الخريطة.

اصوات البحر تعمق الصمت.. الاسى المقطر يعمر الهواء، عمر النهار يشيخ، في هذه اللحظة يقترب الليل من نهايته في بلاد قصية عندما تزحف بداياته بين الجبال ينشع اليود، تطير الروائح الغريبة. نرتاد كوكبا نائيا، ما الذي نلقاه آخر الدنيا؟ أين نهاية العالم في المكان؟ نعبر فوهات البراكين الواسعة نحن في يوم من أيام الخليقة الاولى، عصر ما قبل الطوفان، يغشى الكون بحياة لا تبدو للعين، تنقسم الخلايا الواحدة. ما الذي يجري لو بردت الشمس، انطفأت،

همد القرص المغلي، بنقذنا حسبي البراق، يطير بنا، يعبر الآفاق، يطرق باب السماء الثالثة، الرابعة، بطرق فتحي، على الأقل خمس بنات يفكرن فيه الآن، صورته تتداعى حولها أفكار سناء، سعاد، آمال، نادية، أحريات علمهن عند ربي، غير أنه كما يقول، لا يخدعهن، لا يمي الواحدة منهن بالوعود، فهو يقضي وقتا فرض عليه أن يقضيه، طيب يا فتحي لو قالت واحدة منهن أحبك فهل تجيبها وأنت تعني هذا فعلا؟ يضحك، كل منهن قالت له في أول لقاء أحبك، سعاد مثلا جارته، هذه البنت الرقيقة، انتظرته في ليلة شتاء باردة فوق السلم، مساء الخير، رد التحية بدهشة. قالت أنا أعرف أنك ستحتقرني لاني انتظرتك، وكلمتك، لكني لا أستطيع. راح ينظر إليها في الظلام بعد انطفاء نور السلم الاوتوماتيكي. قالت: هل تذكر ١٦ أبريل سنة ١٩٦٧؟ بسرعة قال لا، انه لا يعرف حدثا كبيرا جرى في هذا اليوم. لم تسقط فيه قنبلة ذرية على مكان ما في العالم، لم يقع زلزال، لم يمت له أقارب. قالت في ١٦ أبريل، هنا فوق السلم، كنت أنزل، قلت لي صباح الخير.. كاد يضحك، لكنه سكت، قال. الآن تذكرت كل شيء. اقترب وجهها من وجهه، أو وجهه من وجهها، لامس أنفها أنفه، همست.. أحبك، لحسها مذاق العجين عندما يخمر، تمشي، قامته الرفيعة الممشوقة، حذاؤه الرياضي الضخم، أي روعة، مجرد شاب، صديقي يمشي على شاطىء البحر الأحمر، أقصى مصر، تعتم الأمواج، يقفز سمك صغير فضي، خيط رفيع صلب من أسى هش مس نفسي أسى، على أي شاطيء بالضبط؟ ما تثيره مقدمات ليل عفي موغل، تمشي مستهي الآن في شارعنا الذي تضيء مصابيحه العالية مبكرة، البيوت

رقيقة ، بطل الأطفال ، خادمة تنشر الغسيل ، يتساقط ورق الشجر الأصفر ، يدوي نفير العلم ، آخر النهار ، معسكر قريب ، منتهى تعبر الطريق ، تستدير ، متبهى تمشي فوق الرصيف ، شق الشارع لتمشي فيه ، خلقوا لينظروا إليها ، يدفق وجهها لونه الأسمر الدافيء الحنون ، كوب اللبن المحلى بالسكر ، حنون ، بالضبط خلاصة الرقة الممزوجة بعذوبة مركزة ، أمشي مغمض العينين ، لا أخشى الاصطدام بحاجز ، فتحي يصفر بحس خفبض.

☆ ☆ ☆

بعض ما قاله سائق عربة النقل وهو رجل طويل الجسم نحيله ، ممصوص الوجه ، لونه يميل إلى البني المحروق لم يكف عن الكلام معظم الطريق من قنا حتى القصير ، وكان ـــ كما قال ، يجيد لغتين: العربية ، والأخرى نوبية ، أو شبه ذلك!

(لكثرة ما مر فوق هذا الطريق ، فهو لا يذكر بالضبط عدد المرات التي قطعها ، أنه يعرف ملامحه ، نوع الصخور الموجودة عند كيلو سبعة ، شكل الجبل عند كيلو أربعين بقايا البيت الغامض المهجور عند الأرض التي حفرها السيل ، لون الرمال أصفر ، لكن عنده له أكثر من لون ، مائة لون ، في الصباح الباكر وبلل الندى الصحراوي يثقل صفرته ، في الظهيرة الوهج الذهبي ، قتامة العصر ، تبدو الذرات مثقلة بحزن ، أي والله تحزن الرمال. طوال سنين قضاها على الطريق لم ير انساناً فيه ، عدا حيوانات الخلاء ، تبدو في عرض الطريق ، تفر لحظة مرور العربة ، في مرة لمح ثعبانا هائلا يسحب جسمه عبر الطريق ، داسه ، أحس أنه يمر فوق حاجز مرن ، نظر وراءه ، لمح الجسم الطويل يجري خلف العربة ، داس بنزين ، فر

هاربا . الطريق موحش واعر ، يزمجر فيه الكون ساخطا ، لو حدث عطب للسيارة ، لا بد ان يتوقف ، لن يدركه أحد ، حتى يبحث عنه رجال الحدود ، يضيع . مهما زعق لن يلحقه انسان ، تعجب ما الدي يدفع شابين في مقتبل العمر إلى السفر هنا؟ (تحدث طويلا عن الطرق الزراعية التي عمل عليها فى الوجه البحري ، العمل هناك متعة ، الاسفلت حرير طبيعي ، قرب طنطا يركن في غرزة بها امرأة بضاء حلوة كالشهد ، سمبنة كالزبد ،عشرة قروش وينال منها ما يبغي ، إذ تراه هو بالذات يخفق قلبها ، لا تداري فرحتها لأنه يريها مالا يقدر عليه الآخرون ، لكن من هي ضمن اللواتي عرفهن ، وقابلهن في كل بلد؟ . قال ان الرجال الذين عمل معهم في الوجه البحري أقل خشا من الرحال الدين يعمل معهم هنا ، بعض زملائه ينتهزون فرصة خروجه فى هده الرحلات الطويلة ويروحون إلى مدير المكتب ويسمون عليه ، يقولون أنه ينقل معه كثيرا من الركاب على الطريق ، يكسب كثيرا من هدا ثم قال : من يتصور أنني سألقى ركابا فى مثل هذا الطريق ، حتى لو أخذت معي واحدا ، أو أثنين فلا أطالبهما بنقود ، كل واحد ودوقه ، قال لكني أسكت ، أسكت ، ثم أدبر للواحد مقلبا يروح فيه ،قال هل تعرفون؟ أي عربة نقل يمكنها أن تدهس أي انسان يعبر الطريق ، لا يدركها أحد ، افرض أنك تسوق فى الليل ، وطلع لك واحد فجأة ، لم تستطع ايقاف العربة ، من سيعرف أن عربتك أنت بالذات هي التي فرمته ، قال بعد سكوت مدة . ساد فيها صوت الموتور ، والرياح ، انطوت أميال ، إنه مهما رأى فلن يرى أحلى من نساء القبيلة التي تنتقل بين حدود مصر والسودان ، ابتسم ، غمز بعينه ، عند حدودنا مع

السودان يقدر الواحد منكما على الاجتماع بما شاء من النساء ، في أكواخ صغيرة ، تعمل لك الواحدة منهن ما يسمونه سمر ، وتدلك جسمك بالزيت ، اسمهن حبشيات ، أما القبائل فتلقون فيها كل أمر غريب ، عاداتهم لا نعرفها نحن في الحضر ، لم يذكر أسماء القبائل ، لكنه قال أنهم رحّل ، وأن رجال الهجانة يعرفونهم ، لوح بيده ، قال ، انتما شابان تستطيعان دخول السودان بدون متاعب ، بلا جوازات سفر ، في هذه اللحظة تماما كان ضجيج العربة يملأ آذانهم ، غير أن فتحي التقط الكلمات من بين اجزاء الموتور ، استفسرا عما قاله ، سرعان ما راح يحكي الكثير من التفاصيل فبعد تجاوز قرية المنجم بمسافة تبدو فيها الجبال موحشة خالية يصل الانسان إلى آخر نقط الحراسة المصرية في قرية صغيرة اسمها (أم الشلاتين) هذه النقطة فيها رجال من الهجانة ترمي عليهم السلام ، تقول أنك تبغي رؤية السودان ، تقول لك اقارب هناك ، تزورهم ، ترجع من نفس المكان ، أقسم ، ويداه بعيدتان عن عجلة القيادة ، أنهما لن يلقيا معارضة ، وهكذا يتمتعان برؤية بلد آخر (سألاه ، ألحا عليه ، استفسرا منه عن كل كبيرة وصغيرة فما قاله ، طلبا منه أن يروي لهما ما رأى خلال زياراته الكثيرة ، أقسم برأس أبائه ، وبتربة أمه أنه وصل حتى شندي ، التي تبعد خمس ساعات بالقطار عن الخرطوم ، عبر النهر في معدية حكومية بقرش صاغ سوداني لا تعبر النهر غير مرة واحدة في النهار ، ثم مشى ساعة بين الجبال ، ورأى هيكل حمار مات من الجوع ، حتى وصل بلدة اسمها نواب ، زار فيها بعض أقاربه ، ثم عاد ، لم يكن معه جواز ، ولا بطاقة شخصية حتى ، كل ما يجب أن

يمعلاه هو القاء السلام، عندئذ يمضون، بشرط العودة من نفس المكان.

انتم يا من هنا.. انتم يا من هنا..

أكتاك خنب، طلاء جيري، قال فتحي: الغروب ثقبل، يلمس اللحم نترك آثاراً على الجهاد والأشياء، يتدفق اللون الذي ينقلب إلى رماديه غامقة بسرعة كما يطلع النهار بسرعة، فجأة، تلقى الشمس، تقرب منتصف السماء، الساعة لا تتجاوز السابعة صباحا، لا بيوت عالبه تخنق الزمن، لا طرقات تتوه فيها، تسحب الاشعة، أيضاً يجيء الليل مسرعا ساحقا كالمصيبة، ظلامه حجارة، ذكريات بعيدة تبعث في الروح ضيقا وكآبة. تأبى الموت.

قال فتحي: ألم يقل السائق اننا سنلقى عمال المناجم والمهندسين؟
قلت: نسينا أن نسأله عن آخر مرة جاء فيها الى هنا؟

تلفت، وشيش البحر، هل نقف عند حافة الدنيا؟ هل نعبر الصراط؟ كم قطعنا؟ تقاس المسافة بآلاف الاعوام.

قلت: هذه بيوت تقام في أماكن العمل المؤقتة، ربما أقيمت لغرض معين ثم انتقلوا منها، واضح أنها لم تهجر منذ زمن بعيد، لا يوجد ما يدل على هذا، لكن الجدران، طلاء الجير، هذه الرائحة، غطاء براد شاي لمحته في فناء بيت، النصف الأسفل لكوب مكسور، كتلة خيط صغيرة رشقت فيها أبرة، رباط حذاء تآكل رأسه المعدنى، قشر بطيخ حف، تجمد، رعشة الحياة ثم انطفاؤها، في وقت قريب أقام ناس هنا، نادوا بعضهم بعضا، تقلبوا أثناء النوم، حلموا، تواردت آلاف الذكريات.

همس فتحي « البيوت ما فيها دبار ولا نافخ نار ، مع هذا أشعر أنها مسكونة ».

ضحكت. بالجن والعفاريت، لم يرد، إن مشي بجوار البحر في أبي قير ، لا أنوار على الطريق يبدو سواد البحر مفزعا ، سداً يبدو لكنه غير محسوس ، فراغ يغريك بالتقدم ، المشي ، يمسك فتحي يدي.. يقول:

هيا نبتعد ربما امتدت ذراع مخلوق لا نعرفه واختطفتنا: تهوي بنا الى القاع ، السحر القريب يقلقه.

قال: تعال نبحث عن مكان نمدد فيها أجسامنا ، سكت.

قال... لو معنا امرأة.لم أرد ، ارتعشت ، أصوات الليل المقبل في الفراغ ، أي ضجة في مدينتنا الآن ، أي هدير أصوات؟ اسمع صرير عجلات الترام عند المنحنيات ، أبواق المركبات ، توسلات الشحاذين ، فرقعة أوراق اللعب في المقاهي ، طشبش الطعمية المقلية في الزيت ، رجل يحسم تردده وينادي:

تاكسي.. تاكسي..
تقول فتاة حلوة لصاحبتها:
دعاني مرتين ورفضت.!

يلوّح شاب مخاطبا رجلا عجوزا. ارسل له خطابات و.. يتقوس حاجبا رجل يرتدي الملابس البلدية ، يسحب نفسا طويلا من الشيشة قرقرة الماء ، اسمع الهمس في الطرقات المزدحمة ، الصوت الخافت لاحتكاك قماش الفساتين في ممرات المسارح ، اصطدام الأيدي

بالارداف، أرى، أحس، أذوب في أنفاس منتهى.

قالت والليل الشتوي يضم البيوت، الناس عليهم وحشة، تحوطهم وحدة، السماء تنذر بمطر لن يكف.. لا بد أن أرجع مبكرة..

قالت انها زعقت لاختها لانها قلبت زجاجة الحبر، وأنها جلست أمام التليفزيون، وان اختها الصغيرة جدا، جدا، نامت، أسندت رأسها إلى يدها، ضمتها، أغرقها حنان مفاجيء، تمنت لو تراني في هذه اللحظة تماما، تفجر في قلبها نبع حنين، سألتني ورأسها يوميء هذه الايماءة القصيرة الموجزة. أنت، ما الذي كنت تفعله ليلة أمس في الساعة.. الساعة. عضت شفتها السفلى، ثوان، فجأة، أتمت كلامها في الحادية عشرة..، وسمعت مذياعا قريبا، مساومة مراكبي حول قارب، الصوت الخافت المنبعث من النيون، ق.قعة آلات الطباعة الصغيرة في الشوارع الضيقة، اطيط شبشب جارتنا في الطابق العلوي، خرير المياه المتساقط وراء زجاج محلات الزهور.. الحادية عشرة.. الحادية عشرة منتهى.. كنت أفكر فيك، ضحكت، قالت:

وأنا أيضاً..

حكيت لفتحي ما دار بيننا، سألني، ألم تقبلها؟

قلت: هذه خطوة خطيرة لم أقدم عليها بعد.

قال: ألم تمسك يدها، ألم تعرض عليها الذهاب الى السينما في حفلة الثالثة؟

لم أرد..

قال أنه لو كان مكاني الآن لاصطحبها إلى بيت أحد أصحابه العزاب أكثر من مرة..

غضبت.. قلت له:

أنت لا تحس هذا، يبدو وجهه متوترا، يدور بعينيه حوله، ربما ما يمر بنا الآن أجملْ ما سنذكره فيما بعد، نعم أشياء لا نلحظها الآن، نرى الموقف كله، عروق رفيعة من البرد، سرت في الهواء..

قلت: فتحي: اسمع خطوات

قلت: لا يوجد غير البحر.

قال: عندما نعبر الحدود، نغني ونرقص يوما بأكمله،

قام فجأة ..

هل تعرف أن الفراعنة لهم جذور هناك، قرأت أن أفراد قبيلة الدنكا جزء من الفراعنة، وعندما هرب المماليك من محمد علي استقروا في دنقلة، فانتجوا صنفا رائعا مخلطا من النساء، همست، ربما، صحيح. رأيت الرمال يتغير لونها فجأة تحت وطأة المساء، هل تتصور حجم العقارب؟ الثعابين، الطريشة تدفن رأسها في الرمال، لو عرفت أمي أين نحن الآن؟ لطمت، عاطت، نفذ الصوت الى سلسلة ظهري، أبر تخز العروق، طفل يقف،يبول في خرابة، فجأة، يتحسس أذنه كلب،فمه بارز الاسنان، ينبح بصوت عال، ذعقة خفير ليلي مرعوبة في قرية صغيرة على حافة الصحراء، عربة تندفع، تقف فجأة، حجارة تدحرجت، لطمتنا، ثوان لم يتجسد لعصب النظر، أحسسنا به، عينا فتحي مشدودتان اليه.. ربما الى جزء معين فيه.. غير انه عاد يكرر ما قال.

- السلام عليكم..

- من أنت؟

ربما أطول مني شبرين، نحيل، لونه أقرب الى البني المحروق، رقيق الفم، مفرطح القدمين.. أنا زويلي. زويلي ان شاء الله..

عيناه ضيقتان، تطلان على شخصين آخرين وراءنا تماما. رأسه مثقل بشعر هائش كثيف يتدلى على ظهره؛ وجه فتحي عليه دهشة، خوف، معه حق. فراغ، وحدة، بحر، ثم انسان غريب، لكن.. ربما داخلني ارتياح، رجل زويلي، جماعة، قبيلة ما، تعيش بالقرب من هنا، رجال، نساء، تبدو الاكشاك كمقابر الخفير قلت

- هل يصلح المكان للنوم؟

- لا أمان، الضباع تجيء في الليل، يهيم الغسوق في الهواء ليمص الدم من الوجوه..

عندنا لا يمشي الواحد بمفرده بعد العشاء والليلة ما فيها قمر، صخور الجبل تنصهر في السواد، تفح الارض أرواحا غريبة، يضيع صوت الموج، ينزل الليل فوق المدينة، تعجن الاصوات، الهمس، الراديو، الزعيق البعيد، صيحات السكارى، يبدو الرجل رقيقا لولا شعره الهائش، تلمع أسنانه كالمعدن، حدثنا عن الذئاب، سألنا عن النار..

قلنا لن نشعل نارا، استعاذ بالله، كيف نبعد الذئاب اذن؟ فتحي ينقل ثقل جسمه من ساق الى أخرى..

- ضيوفي ان شاء الله.

الليل اكتسب مذاقاً مختلفاً منذ ظهوره، أيضاً الزمن، يلتقي الانسان بآخر، يرى أنه قصير طويل، أعوج الأنف، نظيف

الأسنان،لا يعرفه تماما، في كل لقاء تتكشف أشياء لم يعرفها، نوعية الرجل. ما مرّ به من أحداث، ينثر الرمال بطرف عصاه، يحول عينيه عنا. احساس غامض انتابني، أهذا رجل أم امرأة؟ أم بين بين، كدت أضحك، عدت أنظر إليه، أحاول تحديد عمر الرجل، حتى لو قلت الأربعين، غير مطابق تماما، كأنه تحت العشرين، يبدو أكبر بكثير، هذه السمات لا ينطبق عليها زمن ما، صوت بعيد كئيب في السواد، حسم ترددنا، ساقه رفيعة قوية، رجل، امرأة؟

رجل، جزء متحرك من صخر الجبل، الليل غطى الارض، ثقل ناعم كالمخمل..

ما الذي يجعلنا نمشي وراءه؟

ونظرت الى فتحي بلوم، ربما سمعنا الرجل.

* * *

اين الزويل؟

قبل التعرض للزويل يجب ذكر القبائل التي تعيش في هذه المنطقة البعيدة، والتي لم تجذب الا القليل جدا من الرحالة الاجانب، والصحفيين والشبان هواة الأسفار، ونظرا لبعد المنطقة والظروف القاسية المحيطة بها فقد عاش السكان في حالة بدائية، ولا نعرف إلا أقل القليل عن عاداتهم، طقوسهم أو أحكامهم نظرا لأنه من الصعب جدا معايشتهم ولأن أحدا لم يفكر في هذا، وينتقل السكان باستمرار بين مصر والسودان عبر الدروب والمتاهات التي تملأ الصحراء، ويقال أن الواحد منهم يمكنه المشي بلا انقطاع لمدة خمس ليال متصلة في الصحراء بدون تزوده بنقطة

ماء، أو كسرة خبز، ولا يضمهم تجمع واحد، ولا قبيلة بعينها..

والمعروف تماما من هذه القبائل ثلاث.. هي:

١ - البشارية:

اكثر القبائل تخلفا، يعيشون في آخر حدود مصر، يتوغلون مسافة ٨٠ ميلا داخل السودان، ثم فوق لسان من الأرض على نهر العطبرة.. يتكلمون لغة خاصة بهم..

٢ - الزبيدية:

وحالتهم المادية متحسنة نتيجة قربهم من الحضر.

٣ - العابدة:

وهم اكثر تحضراً لعمل الكثيرين منهم في المناجم، ويترددون على المدن القريبة، بعضهم وصل إلى القاهرة ويعيش بها..

أما الزويل فقد أنكر الكثيرون (خاصة أساتذة قسم الجغرافيا البشرية بالجامعة) ورجال الادارة وجودهم قالوا:

ليس هناك قبائل بهذا الاسم. ربما وجد تجمع بشري لا يزيد تعداده على المئات عرف بالزويل، غير أن جميع المسافرين بهذه المنطقة يعرفون تماما من هم الزويل! ولو كلف أحد خاطره وأوقف أي بشاري أو زبيدي وسأله عن الزويل لأجابه بالكثير، لكن ترجع قلة المعلومات إلى بعض هذه الأماكن، بالاضافة إلى طبيعة الزويليين التي تأبى عليهم البقاء في مكان واحد، إنهم دائما بعيدون عن الحضر كجماعات، تحيطهم رهبة تبعد عنهم أي قبيلة أخرى، إلى جانب إجراءاتهم الصارمة في إبقاء أخبارهم دائما مبهمة..

* * *

تزور أخته..

سمراء، تميل إلى امتلاء، تجيء في السادسة، تفتح النافذة قالت أخته أول مرة تعرفه بها.

منتهى.. منتهى صاحبتي. اسماعيل أخي يا منتهى.

احتوى يدها الرقيقة، يشرب عصيرا حلو الطعم، عصا طويلة انغرست في قلبه، انسربت إلى دورته الدموية، فتحي.. ان لم أعرفها.. ان لم أحبها وتحبني لبقيت بعيدا عن جنس النساء طوال عمري. فتحي كأنك قضيت عمرك تبحث عن شيء ما ثم.. ثم وجدته.. عثرت عليه فجأة.

* * *

ما الذي يزدحم به الليل في هذه النواحي؟؟ ليس هواء خالصا، ولا نسمات كأن الصيف والشتاء لم يلامسا الصخور، الجبال، ينتصف النهار، يذوب العصر في المغيب، الأسى للغامض يغرق قلبي، يأكله، فتحي لا يميل إلى الكلام، طوال النهار لا يتحدث كثيرا، قلت: تعال نلف المكان، قال فلنبق جالسين، ربما نظرنا بدون قصد أحد حريمهم، قال اسكت، تركته جالسا أمام الكوخ الصغير المستدير، تجولت بعيني، يعلو مرتفع صغير من الارض، يفصل كوخ الضيافة عن البيوت، الحريم، المساحة الكبيرة. لو وقفت على أطراف قدمي أرى قمم البيوت المصنوعة من القش، تصلبها أعمدة أشجار. تستدير من أعلى، بناء بعيد ملون على بعد ينأى عن الاكواخ، أطفالهم يتبعونني، عرايا، أتحرك خطوة واحدة. يتحركون خطوة واحدة أضع يدي حول خصري، كذا يفعلون، ضلوعهم عيدان

قفص مفرغ، وجوههم متشابهة، الخطوط مستقيمة. العيون ضيقة يتجمع عند أطرافها نقط صفراء لزجة، الملامح لرؤوس رجال بلغوا من العمر مدى، ركبت فوق أجسام صغار، ضاع لون الجلد الاصلي تحت التراب والرمل،الشعر هائش أشرت لاحدهم، كشر في وجهي، انحنى، يكاد يرميني بحجر، تراجع، تراجعوا داروا حول المرتفع الصغير، أمام عيني ينطلق الخلاء الى السودان فسيحا جموحا كساحة سباق، يصدم جبالا شديدة البعد، بالغة الارتفاع، ربما في السودان تنتهي السماء هناك، لونها غريب، فرشاة ألوان مائية رقيقة خطت هذه الخطوط الرفيعة التي تحدد الجبال، الطريق من قنا حتى قرية المنجم لم نر فيه جبالا بهذا اللون، التكوينات البعيدة، فتحي يسند رأسه الى ذراعيه، عيناه معلقتان في السقف، لا سقف، جدران الكوخ المجدولة من العيدان الرفيعة،ليست بوصا، نوع خيزران، تعلو الجوانب من الارض، تميل حتى تتلاصق، تنتهي فجأة. حرارة الجو لا نحسها، وقع أقدام في الخارج قلت لفتحي.. أصابك كسل، لم يرد، قلت لو جاءت سعاد أو سناء.. ستظل نائما؟ ابتسم. قال: أتذكر الآن سناء في زي المدرسة الثانوي الرمادي. تراجعت إلى الخلف ضاحكا. سررت لأنه عاد يضحك، يتحدث، قلت دبرني يا فتحي.. انتصب واقفا.. نعم يا سيدي.. قلت أنا أحب بدون أمل ما الذي تفعله لو كنت مكاني؟ ضحك سنناقش قضية خطيرة جدا، هل الحب من غير أمل أسمى معاني الغرام كما يقول فريد الأطرش أم لا؟

* * *

معلومات عن الزويل:

يعيش الزويل في المنطقة البعيدة عن الطريق الواصل بين مصر والسودان والمار ببلدة حلايب، ويتجنبون لقاء بعثات المناجم، او البترول التي تصل هنا، غير أن بعضهم ثبت فعلا في سجلات شركة مصر للتعدين أنهم عملوا كحمالين في مناجم الفوسفات، وهذه هي الحالة الوحيدة التي تقدم فيها بعض أفرادهم إلى عمل معروف بصفتهم زويليين، غير أنه هناك شواهد قوية تدل على أن كثيرا منهم عبروا الطريق الواصل بين البحر الاحمر وقنا، دخلوا صعيد مصر فعلا، تجولوا في مدنه، باعوا الفاكهة في قطارات الصعيد، وقد انتقل بعضهم فعلا إلى ممارسة أعمال اخرى، كالملاحة في المراكب النهرية التي تنقل أوعية الفخار من صعيد مصر حتى الدلتا، أو بناء المنازل الريفية الصغيرة في القرى، حيث يقيم البناءون طوال مدة بناء البيت على نفقة صاحبه، يأكلون ويشربون ويقبضون أجرا ضئيلا .. أيضا عملوا في جمع البلح من فوق النخيل، يجيء الواحد منهم إلى صاحب الحقل، ويقول له أجمع لك البلح كله مقابل كذا، والمعروف أن هذا العمل يتطلب مهارة معينة في التسلق وابقاء الجسم ثابتا أكبر مدة ممكنة فوق هذا الارتفاع، ويقال أنهم استخدموا هذه المهنة في التجسس على البيوت المنخفضة المحيطة بالنخيل، عمل بعضهم على الشواديف، ينقلون المياه من الترع المنخفضة إلى قنوات الحقول، ينشدون المواويل الغامضة الحزينة، وأيضا في تشحيم القطارات، وبيع الشاي داخل عربات الدرجة الثالثة، التجارة في الثياب القديمة

وإستبدالها بالأواني المنزلية، وهذا يتيح لهم فرصة الدخول إلى أكبر عدد من البيوت، مناقشة السيدات لأطول وقت ممكن ساعة الصباح، أيضا تجول عدد منهم في حواري القاهرة بلهجة تميل إلى لهجة المغاربة. أفتح الكتاب.. أفتح الكتاب.. وكثيرا ماتصيح عليهم بعض السيدات فيطلعون ويستطلمون الغيب، من خلال الغيام، ولهم مقدرة على هذا، يلاحظ أن أيّا منهم لم يستمر في عمل واحد مهما طالت المدة به، يظل فيه فترة معينة، فجأة يختفي. فيظن صاحب المركب مثلا أنه غرق، ويضطر إلى اخفاء الخبر حتى لا يجر على نفسه المتاعب، خاصة أن الزويلي طلع للعمل. لم يعرف له بلد، ولا أهل، أما بقية الاعمال الاخرى فلا يلاحظ فيها الاختفاء، ويقول البشارية أن الشيخ صهيج الملثم - الذي لم يطلع على وجهه انسان - هو الذي يرسل جماعات الزويل وراء الصحراء . ينتشرون في المدن ، يعايشون ناسها ، يعودون بعد غيبة طويلة قد تمتد سنين ليختلي الواحد منهم ساعات طوالا بالشيخ الملثم ينقل له مالايعرف سره أبدا . ويؤمن البشارية الزبيدية ، ومعهم العابدة ، أن الزويل في كل مكان ، حتى بير جماعاتهم هم التي يعرف فيها كل منهم الآخر، فيتحاشون ذكر الزويل بالسوء لانهم على يقين من وجودهم بينهم. وفي لحظة معينة يظهر الزويلي. يفرقع الحصى تحت أقدامه. تلين له الحجارة. وينكسر الشوك- هكذا يقولون- ولا يذكر أحد سببا واضحا لارسال هؤلاء- الطوافين الزويل- كما يعرفون، لكن المؤكد ان الزويلي لا يجرؤ على مغادرة جماعته، أو عشريته، إلاّ بإذن خاص

من الشيخ الملثم. ويقال أن موقع الواحد منهم أثناء طوافه يكون معروفا للشيخ. فاذا وصل الواحد منهم المنيا مثلا يكون معروفا وراء الجبال أنه هنا أو هناك. ولا يعرف الزويل باسم واحد حتى عند القبائل والجماعات القريبة. بل يذكر اسمهم مقرونا بلقب آخر. يختلف بين سكان القبيلة الواحدة. فبعض البشارية يسمونهم جند نجور زويل، ويسميهم قسم آخر. الفولاندزويل، أما العبابدة فيطلقون عليهم سونغايزويل او موسزويل، ولا يعرف سبب لهذه الأسماء الغريبة والمعتقد أنها مستمدة من لغة قديمة، ربما لغة الزويل الحالية، ويستثنى الزبيدية من هذا، لانهم يسمونهم زويلا فقط، ويضيفون بسرعة بسم الله الرحمن الرحيم وعرف عنهم تميزهم بهذا الجلد العجيب، أنهم يعيشون دائما في حالة مجاعة فالطعام قليل جدا، ويحدث كثيرا أن يقابل الزويلي شخصا من البشارية فيقول زاعقا، والله لنا أربعة أيام ما أكلنا ولا شربنا فيقدم له البشاري الماء. ولو معه طعام ما بخل به أبدا، فالزويليون تحيطهم رهبة غامضة تجعل الجميع بعيدين تماما عن الاشتباك معهم في قتال أو التعرض لهم، لو مر واحد من الزبيدية راكبا جمله أمام زويلي لترجل بسرعة ولا يبدو على الزويلي أنه لحظه، برغم أنهما بمفردهما تماما في الصحراء، وكثيرا ما تقع بعض الحوادث الغامضة كأن يختفي طفل بشاري، أو يقوم رجل زبيدي فلا يجد امرأته الشابة بجواره، وحكي كثيرا في مضارب العبابدة عن عريس صغير زف إلى امرأته بعد أن عقدوا لها عليه وعندما فتح عينيه في الصباح عبثا حاول أن يجدها صرخ، زعق، بكى عند قدمي شيخ القبيلة،

لكن الجميع قالوا له ما نقدر نعمل لك شيء، وجرؤت عجوز على القول بأن العروس الضائعة كان يرغبها زويلي، وأنه حدد اللحظة التي ينال فيها العروس في أول ليلة لها ثم ينتزعها من باط رجلها، المهم أن العروس راحت على زوجها ولم يختلف في أمرها اثنان، لكن لماذا نبتعد ونورد ما يتردد على ألسنة البشارية أو العبابدة ألا نذكر هذه الحادثة عندما شرع ثلاثة رجال أوربيين في رحلة من مدينة أسوان قاصدين السودان متخللين المتاهات والدروب عبر حلايب، وصحبهم دليل قيل بعد ذلك أنه من الزويل، المهم أن سيارة الجيب مضت عبر الدروب، وتأخرت عن الوصول إلى نقطة الحراسة المصرية عند أم الشلاتين خرجت دوريات الحراسة المصرية تبحث عنها، وبعد جهد كبير وجدوا السيارة وقد سلكت طريقا جانبيا وعرا- حاد الكثيرون في السبب وكيف طرقته- وعلى مسافة ثلاثمائة متر وجدوا جثة أحد الاوربيين، أصبح هيكلا عظميا أثبت التشريح أنه مضروب بطلق ناري، بالقرب منه جثة زميله الآخر، مطروح على ظهره، يداه مرفوعتان إلى أعلى يحوش خطرا وهميا، وبالقرب رقد هيكل الدليل الزويلي، الثياب القديمة الجافة، العباءة القصيرة تغطي الهيكل، لكن الغريب أن التشريح أثبت أن الفك والجمجمة لرجل أوروبي، فهل هي جثة الأوربي الثالث، ولو فرض صحة هذا فما الذي جعله يرتدي ملابس الزويل، وإذا لم يصح، فأين راح الرجل الثالث، الذي عثروا على آثار قدميه فوق الرمال ولم تستطع الدوريات تتبعها بين الجبال الموحشة، والكثبان المتحركة باستمرار، لقد علقت الصحف على الحادث كثيرا، وتساءلت، ما الذي يربط الأوربي الثالث في هذه

المنطقة؟ وإذا كان قد اختفى ولم يعثر على جثته.. فأين راح؟

☆ ☆ ☆

قلت لفتحي. الليلة تكلمت معها عشر دقائق. بمفردنا. ابتسم، اصفى، نسيت تماما ضجة المتن.

كالمعتاد جاءت، تضم كتبها الى صدرها، تمشي على أطراف أصابعها، عيناها الواسعتان، تحتويني، ترقبني، كأن أختي أحست فخرجت تعمل لنا شايا.. بسرعة سألتها، أنت في أي مدرسة؟ بدهشة قالت، أنا زميلة نجوى في نفس الفصل، صوتها له مذاق عصير العنب، شفتان لون رمان منفلوط، طعمه السخي، قلت لنفسي، أنت سخيف وعل هذا سؤال. وتذكرت جرأتك مع البنات، ابتلعت نفسا عميقا، هل انهيت المقرر كله؟ اهتز شعرها وهي تجيبني.. تقريبا، قلت لو كنت ضعيفة في أي مادة أنا. أنا أساعدك.. ياه.. ولم أسمع واحدة تنطق حرف السين بهذه الحلاوة، خاصة اذا كان يتوسط كلمة - مرسي- !!.

يوم حار أشرب فيه ماء مثلجا، فرحة الدقائق الاولى عند وصولنا بحر الاسكندرية، قلت: لك أخوات. قال ثلاث بنات، أختى الكبيرة في الجامعة، أية كلية؟ قالت الآداب، ياخسارة لو الهندسة لسعيت اليها غدا، قالت انتظر هناك سهير الاصغر مني وفادية.. قلت تعرفين طبعا.. كل اخوتي نجوى.. لم تقل نعم. لم تقل لا، لم تنطق حرفا، هزت رأسها من أعلى الى أسفل.. هذه الهزة القصيرة جدا، السريعة جدا، تترك طعما في الفراغ، كدت أصيح، أقفز، دخلت نجوى، تناولت الشاي.. صبت القهوة. قالت منتهى..

احذري وش القهوة. فرصة لأشرب اللون الأسمر عندما تحول عينيها عني، قلت أنا لا أشرب القهوة، لم أعجز، ضحكت، لن أتحرك حتى أرى شفتيها تطبقان على حافة الفنجان،أراها تحسي حسوة، قالت أنها تعودت شرب القهوة من الصغر مع جدتها، قلبت أختي كراسة كبيرة، تتشاغل عنا. تساءلت أنا أعطلكما، لم يردا.. تبادلا ابتسامة، وقفت، قلت لو أنتما ولدان لأخذتكما معي في رحلتنا، قالت بسرعة.. الله.. ستسافر؟ قلت سألف مصر.. قالت نجوى: تصوري يا نهى لا يأخذني معه للسينما، قلت.. سآخذكما معي، ضحكت أختي.. يا سلام..

معلومات اضافية عن الزويل:

عادة يقول الزويل للضيوف الأغراب عندهم في البداية، أن مدة ضيافتهم سبع ليال، وأن الغريب يمكن له مغادرة المكان في شروق اليوم الثامن، على أن يضمن الشخص الزويلي الذي صحب الغريب سلوك الضيف طوال الفترة فلا يسمح له بالتجوال ساعة ما بين الغروب والعشاء، في هذا الوقت تماما تخرج الزويليات إلى أرض خلاء كبيرة تقع على بعد من الأكواخ والخيام، يسمونها «الحماد» يقضين فيها حاجتهن، وإذا حاول الغريب، أو غافلهم وغادر المكان سرا، لسعوا وراءه وأحضروه، وهذا مؤكد، عندئذ يعتبرونه عدوا أبديا، ما الذي دفعه إلى الرحيل سرا؟؟

* * *

صمت فتحي، منذ العشاء لم ألح عليه، ليال كثيرة مرت في رحلتنا، بيت الشباب في سوهاج، السرير ذو الطابقين، عربات

القطار المعتمة، نظرات الرجل الشرهة إلى فخذي السائحة النائمة المسافرة قطعا إلى الاقصر، مشينا ضاحكين على طريق الميكروباس عند قرية البرجاية، مشينا فوق كوبري نجع حمادي، المغيب ينزل هادئا فوق النيل، اذا قلت ان هذه الليالي كلها متشابهة، فلست مخطئا، أما ليلة الأمس فأي شيء يجعلها غير الليالي كلها، ليست ليلا هل يختلف النهار من بلد إلى آخر؟؟ ربما، حتى في القاهرة النهار عندنا في كوبري القبة، البيوت نظيفة مجلوة، الشارع الممتد كنهر تشقه خضرة خصبة من نفق العباسية حتى روكسي، مصر الجديدة، في ميدان العتبة. في اللحظة نفسها طعم النهار يختلف، التحرير، الجلاء، الكوبري، طريق الجزيرة، نفس الوقت، لكن النهار غير النهار، ساعات أخرج من البيت، أعبر نفق المترو، ينسرب الصباح إلى رئتي، تهب نسمة، نسمة معينة، اكتشف أني لم أمر في المكان أبداً، لم أعبره قط، لكن بعد هذا كله يبقى النهار نهارا، فيه شمس، فيه وهج، تسطع ذراته، أما الليل هنا، الظلام، عتمة، أبدا، يمتلىء الفراغ حولنا بعيون مفقوعة، عيون كتبة عجائز تغطي رؤوسهم المناديل والطرابيش، ذابت أعمارهم أمام الحاكم، نساء يلطمن، خيول تندفع، تندفع، تسقط في جرف سحيق، أي ليل؟؟ تبــدو دقة الزويل، يعاملوننا باحترام، لا.. بحذر، ليلهم حذر مثلهم، ما الذي يتساقط في هوائه؟؟ هل تدرك هذا يا فتحي؟؟ أي بلادة تحط على يافوخك؟؟ المفروض أن يطل كل منا على الآخر، هل تدرك؟؟ لو طلبت منه أن يبادلني الحديث لزعق في وجهي، لم يعل صوته ولا صوتي، الطريق كله نضحك، نتخذ القرارات. بعد

رجوعنا قلت، هل تأملت الرجل صاحب الشعر الأبيض؟؟ باختصار قال، لا أعرف، رحبوا بنا، بدا شيخهم مغمض العينين، ليس أعمى، لا يظهر وجهه لكني أحسست أنه مغمض العينين، انحنينا كما نصحنا زيفر أن نفعل، رجال لهم نفس السمات، الملامح، ثمة ما يحيط الواحد منهم تدرك أنه زويلي، زويلي، ما وراء الزويلي هذا؟؟ لا يعرف فتحي، لا أعرف أنا، قبل زيفر يد الرجل الذي يجلس تحت المصطبة التي يعلوها الشيخ الملثم، قال اننا ضيوفه، انه وجدنا في بيوت الخشب، يتولى العناية بنا، يستسمحه في قضاء مدة الضيافة أحاطنا شبوخ الزويل، شعورهم هائشة، عيونهم حادة، تلمع أسنانهم، هل دهنت بالزبدة؟ سألنا أحدهم عن الطريق، البعثات الجديدة التي ستأتي الى المنطقة، عددها، هل نحن منها، طيب إذا كنا لا ننتمي إلى هذه البعثات فما جاء بنا؟؟ وهل هذا معقول كيف يتنزه شابان في الجبال، يعني ألم يخبرنا أحد بأننا سنلقى الزويل، ألم تكن عندنا أي فكرة عن وجود الزويل هنا؟؟ ياه.. ألم نر زويلياً واحدا في الطريق، في القطارات، في كل المدن، القرى التي مررنا بها نظروا إلينا بشك، أقسمنا لهم، سأل عجوز، ما الذي يقوله البشارية عن الزويل؟؟ اذن لم تلتقيا حتى بالعبابدة؟ هل يتردد اسم الزويل كثيرا في الحضر، هل تنوي الحكومة إرسال رجال مسلحين بالبنادق إلى هنا؟؟ ثم سألنا كهل عن علامات النهاية في الحضر، النساء العرايا في الميادين العامة، الحديد نطق، ثم ما الذي يطير في السماء كل صباح، قال فتحي. ربما طائرة، نظرت بطرف عيني إلى شيخهم،ارتجفت، مغمض العينين، لا يرفع النظر عني مع إن عينيه لا تظهران، فجأة نطق، صوته جاف، قوي، تحار إلى أي سنين

العمر ينتمي؟؟ قال، لا تبالغوا في أسئلتكم ربما ظننا أننا لا نعرف شيئا بالمرة عما وراء الجبال، صمت الرجال، وضع زيفر يده فوق كتفي، قمنا، ارتدينا نعالنا التي خلعناها خارج الخيمة، أحاط عيني بمنديل، أيضا فتحي، امسكت بيد فتحي، مشينا على صوت زيفر يمين، شمال، احذروا حفرة، نمر في أماكن الحريم، يجب ألا نراهن، حرقتني الرغبة إلى رؤية البيوت الزويلية، عضضت شفتي، لحظة أن قمت، نظرة، لفتة، لمحة، هذا العجوز صاحب الشعر الأبيض فوق رأسه، نظرة نافذة تخز كلسعة، تجسد ما أحسه، آه لو أعرف، الطريق ناء ولا بد أن يصحبنا زيفر إلى أم الشلاتين.

لمحة في عقائد الزويل :

لا تعرف بالطبع كل التفاصيل الخاصة بمعتقدات الزويل، لكن من خلال بعض المعلومات التي تسربت الى البشارية والعبابدة، أمكن تكوين فكرة شبه عامة عما يمكن تسميته بـ« الزويلية » ان المصادر المقدسة لديهم ليست مكتوبة أو مخطوطة في نصوص معروفة، لقد انتقل هذا التراث المقدس شفاهة عبر الاجيال، وحاليا تروي على لسان الشيخ صهيج الملثم، وشيوخ العشائر، من الذين لا تقل أعمارهم عن الطبقة الخامسة (تحسب الأعمار عند الزويل بالطبقة، فيقسم العمر إلى طبقات، الواحدة عشرة أعوام، فيقال مثلا، هذا في الطبقة الثالثة أي أنه بين العشرين والثلاثين)، ولا يخشى الزويل من ضياع التراث لأن الشيخ الملثم ما هو إلا تجسيد ظاهر لروح زويل الكبير، فروحه تنتقل عبر الأزمان في أجسام مختلفة قد يختلف صاحبها لكن الروح واحدة

حتى يجيء يوم محدد يظهر فيه زويل الكبير الذي اختفى من حول بعيد لا يعرف مقداره بالضبط، لكنه لا يقل أبدا عن مائة ألف ألف طبقة، كان زويل الكبير قد ضاق بما يجري في العالم، وكادت روحه النقية الطاهرة كالندى تختنق في آثامه وشروره. تغرق في بحار ظلامه، تتوه في سراديبه، ارتفع إلى السماء بعد عذبات رائعة وآلام مخيفة، عانى منها أجيالا طوالا وتوارى في الغمام، غمامة بعينها، (ولهذا ينحني الزويلي ويقبل الأرض لو رأى الغمام في السماء ويطرق خاشعا لو سمع الرعد ورأى البرق، فالرعد صوته، والبرق سوطه، وقد يتعالى بكاؤه اذ يهطل المطر الرفيع الغزير، فما هو إلا دموع زويل الكبير، الذى يبكي لأن الاشياء كما هي لم تتغير منذ أن ارتفع). راح زويل الكبير يرقب ما يفعله أبناؤه الزويل الذين عرفوا بعد زمن سر اختفائه، فراحوا يعملون ليعيدوا إلى العالم اتساقه ونظامه ونقاءه وصفاءه وفي اللحظة التي يتحقق فيها هذا، يقوم جند الزويل من كل مكان، كل من مات منهم على مر السنين يقوم، يقصدون جبلا كبيرا على هيئة التمساح يقع شمال مدينة أسوان في جوف الصحراء الشرقية بحوالي أربعين كيلو متر، يقصدونه في جموع جرارة تسد عين الشمس وتزحم حلق المغيب، وفي غداة وصولهم يبدو لهم زويل الكبير عند الركن الأيمن للجبل (الذي قيل أنه ارتفع عنه). يشهر بيده رمحا رأسه مذهب يدفعه إلى شيخ الزويل الظاهر، الذي يذبح نفسه راضيا، عندئذ يتولى زويل الكبير القيادة بنفسه، فيذكره الأعزاء وبصيته يزعقون، أما الاذلاء فيذكرون اسمه بشفاههم، يهمسون، حتى

الجبال قيل أنها ترتعش يومئذ من شدة الهول، وترتجف ذرات الرمل، هنا ينبسط سلطانهم على العالم، يسحقون آخر ما تبقى من شر وإثم وفي كل يوم يصحو الزويلي من نومه، يولد من جديد، يتذكر ما سيجري وما سيكون ويتلو بخشوع مهيب (الحذار)، الحذار أن يقفو أحدكم لمولانا زويل أثرا، ولا تكشفوا عنه خبرا، فقد اختفى لضيقه بشرور العالم، وآثام البشر، رأى أن الدنيا تعاسة مستمرة وشقاء متصل وعذاب مقيم، نعيمها زائل، العيش فيها باطل، نطمع فيها الى الخير فننال شرا، نبتغي السعادة فتصيبنا الشقاوة، نموت ولا تنتهي حسراتنا، الطاهر فيها يلوث، النقي يهلك، يسود الجهل المشين، يكسو الظلام جسم النهار، أيامنا لهيب وحريق، يفتح الانسان ذراعيه للعالم فيدبر عنه ثم يستدير ليلطمه، يقمعه، يبطش به، عندئذ يتحول الصفاء إلى عطن، الندى يصبح وحلا، الزهور البريئة نراها عوسجا يدمي، البكارة عهرا، والفرح كدرا) وما ان يجتمع الزويل في ساحة كبيرة يتلون هذا بصوت عال ترتج منه الصحراء، يسري حسهم كالعروق في الفراغ يدرك البشاري فوق جمله فيترجل، يسمعه الزبيدي فيصمت، تقع اللقمة من فمه، أما الغريب فيقول إنها الأرواح، بعد تلاوة هذا يتوجهون إلى شيخ الأوان الظاهر- صهيج مثلا- فينادي أكبر شيوخ العشائر سنا زويل الكبير، زويل الذي يقهر الشياطين في السحاب، يجري الأمال الصافية الكبار، يقتحم كهوف الكآبة والأكدار، يخرج الأحزان من الأرحام، يبشر بآمال كالنار تخرج من ألسنة البرق وجوف الغمام، ويتساءل الشيخ بدمع باكٍ

وروح تتعذب وجسد مرعوش، متى يظهر مولانا زويل الكبير؟؟ فيقول الشيخ الملثم، الأوان لم يعد نائيا، فيتباكى الجمع ويجرى دمعهم، وقد يشج بعضهم رأسه فوق الأحجار لقد هجر زويل الكبير العالم لأنه لم يطق زيفه وناله الأذى العظيم، ورأى أن يتطهر قومه من كل خداع ومكر. ولما كانوا هم جزءا من العالم فكل ما يجري فيه لا بد أن يوجد فيهم، الخداع، قمع الطهارة، الخبث، تلويث النقاء، لكنهم، وحتى يظهر زويل الكبير سوف يمارسون كل هذا بوضوح، فاذا اشتهى الواحد منهم امرأة جاره سعى للحصول عليها مباشرة، إذا كره الأخ أخاه لم يخف كرهه، يعلنه في كل مكان حتى تحين اللحظة التي يجهز فيها أحدهما على الآخر، ولو كرهت جماعة منهم شخصاً ما فربما اختطفوه. وقد أباح لهم الشيخ صهيج الملثم سائر البشر المقيمين وراء الجبال فلولاهم لكان زويل الكبير مقيما بينهم ينشر العدل ويملأ الأرض سلاماً، وبرغم ممارستهم بشاعات البشر الآخرين بوضوح فهم لا ينسون جوهرهم، ورسالتهم تخليص الدنيا حتى يظهر الزويل الكبير، ينبثون في أرجاء الكون طوافون أبدا، جوالون لايهدأ لهم رقاد، يلتقون ببعضهم البعض يرجعون إلى مضارب الزويل في متاهات الصحراء كلهم، أينا كانوا ينتظرون هذا اليوم البعيد الغائب في جوف الزمن، والذي يطل فيه سيد البرق والغمام.

* * *

آخر الليل وقع قلبي، فتحي بلكزني، صوته غريب، هل نادى مدة؟ سألني هل فهمت لغتهم؟ ليل كهذا، استيقاظ مفاجيء لسماع

استفسار ولو ضئيلا يثقل بآلاف الأشياء الغامضة، الكلمات لبست هي، أهذا وقت تسألني فيه يا سي فتحي عن لغتهم؟. قال أطنها الفرعونية، قلت تخريف، في الخارج بدأ صوت بعيد كأن شخصا ينادي آخر في الفراغ، استمر الصوت، أعطى عمقا للسواد، الليالي وحوش تنوي الأذى، عيون تقذف شررا، قال بجدة.. لماذا يتكلمون بلغتهم ونحن معهم؟؟ قلت ضاحكا، ربما أرادوا الا ينشرو غسيلهم الوسخ أمامنا.

* * *

ربما تدلنا أسماء الزويل على بعض ملامح من ألفاظ لغتهم (يلاحظ أن العبابدة تكلموا في وقت ما لغة «توربداوي» وهي لغة حاميّة اختفت بعد أن تعلموا العربية. ومن الممكن أن يكون هناك شبه بين ال «توربداوي» ولغة الزويل الحالية، ولكن هذا غير مؤكد، لم يتمكن أحد من معرفة أسرار اللغة لانها غير مكتوبة، والاسماء المعروفة لنا قليلة جدا، منها مثلا، زيفر المذكور، أيضا الشيخ صهيج، هناك أيضا، الدجل، فازور، نزه منساف، أتليد شطب، حراج، شناد مرزات، تزاج).

اصغى فتحي بهدوء. نصحه ألا يكون مندفعا، قل لها أين تذهبين غدا، إذا قالت إلى العتبة مثلا. قل والدهشة على وجهك.. لا تنس دهشة حقيقية.. وأنا ايضاً أذهب إلى هناك. هل يمكنني أن أوصلك؟؟ أبدي ضيقا، سأطلب منها مقابلتي، بلا لف شد فتحي شعره، أنا أعرف البنات أكثر منك، ضرب المنضدة بيده، صاح، ليست مثل البنات، أنا لا أجيد هذا، لست مندفعا

إنما أعبر عن عواطفي كما هي بنفس حجمها، لن ازيف نفسي. قال فتحي انت لا تعرفهن.. زعق: هذه عملة نادرة.. لم يصنع منها نموذج ثان.. ضحك فتحي. يا عبيط..

* * *

قبل أن ينام زار إبراهيم صاحبه، قابل طلعت ونبيل الذي يعمل في مصانع أسكو، أخبر إبراهيم بما نوى، أما طلعت ونبيل فعلاقته بهما لا تسمح له أن يظهر لهما عواطفه، سلم عليهما، أطال الحديث، تمنى لو دار الكلام ليخبرهما، تركهما وهو يقول بصوت عال، لن يعرف انسان حقيقة ما يجري في عقل صاحبه أبداً، كاد يجري قافزا الكوبري الذي يعبر النفق، يحزم روحه بالأمنيات يلفيها تسبح في الفراغ، لو يعرف الجميع ما قرره، حتى بائع السجاير، يقطر قلبه ماء الورد، زعقت له نحوى، إنه الوحيد الذي يرهقها في البيت، طالبته بخلع ثيابه، قفز من مكانه، قرص ذراعها مداعبا فصاحت غاضبة..

بعض انواع الوحوش الموجودة بالمنطقة.

أ - العسبار اللمي..

له نموذج محنط بمتحف انشاص، صيد من جهة حلايب. أوصافه: الأذن مدببة مستديرة عند قمتها، تتشرشر تحت طرفها إلى الوراء ثم تتحدب ولا تلبث أن تتقلص عند قاعدتها، لونها أبيض يميل إلى صفرة بالداخل، الرأس أسود، أنياب الفم طويلة، حادة يفصل بين كل منها انفراجة صغيرة ملحوظة، الفراء من

شعر صوفي صلب عليه من الجانبين خطوط سوداء، يشبه الضبع في طباعه لكنه أكثر شراسة.

ب - جنس الغسوق..

خفاش بالمنطقة، بشع لزج المنظر، رائحته كريهة، يلتصق بالانسان إذا ما اندفع إليه وأمسك بالوجه، أذناه كبيرتان، متحدتان في قاعدتيها فوق الجبهة بغشاء مستعرض منخفض، العينان دقيقتان رفيعتان جدا، الذنب طويل يصل إلى نهاية الغشاء الواصل بين الفخذين، فقراته النهائية على شكل حرف T

ج - السنور العناق..

توجد له نماذج محنطة بحدائق الحيوان بالجيزة، شديد الوحشية يشبه نمرا مصغرا، يميزه جسمه الرشيق وفراؤه المحبوك. لونه العام رملي محمر، يترصد فريسته لمدة طويلة قد تبلغ ثلاثة أيام، وبضربة واحدة، ينقض فينهي كل شيء، لذا يخشاه الزويل جدا، خاصة أنه يهوي أكل الانسان. وتوجد أنواع أخرى من الحيوانات لم تصلنا عنها معلومات كافية لعدم تمكن الهيئات العلمية من الحصول على نماذج لها، أما العقارب فكلها سامة. شديدة الفتك.

* * *

ضاع فتحي، درت بعينيّ، لو اغمضها، افتحها، ألقاه أمامي ليس معقولا، يحدث هذا، أبدا، أبدا، كل شيء معد من قبل، من دبر هذا؟؟ مهد لما جرى، حواسي تدرك ما وراء التلال، ألقاه حجرا رحاية يهرسان كليتي، أين راح؟؟ ذهب؟؟ فتحي؟؟ م

ظننته يتجسد بشعا مروعا، يمضغني. قلبي دم طري، فتحي.. درت حول الكوخ، رأيت حبيبي فوق دكة خشبية بمحطة قطار بني سويف، يعبر باب الكلية في صباح يوم خريفي، أحسست به يتقلب في الفراش عندما نمت بجواره، خروج الهواء من أنفه، لحظة تقلبه، فرحة روحه عند اتخاذنا قرار السفر، يمسكني من ذراعي لنمشي بعيدا عن سور الأزبكية، لو وقفت عند الكتب لضاع نهار، سمعته يغني، وقطع خطواته فوق سلم بيتنا يوم عيد، أعبر معه الطريق والأشجار عارية، الشارع مليء بدوامات الهواء، التراب، وحده، أسى خفي ينضح من جدران البيوت، حزن يفري الضلوع، ما راح زمن منقض، حب كره، ملايين اللحظات، تدبر، تضيع، لم يكن شيئاً من هذا، أيام فتحي كلها، أيامي، أسمعه، أحسه، يصرخ في ميدان التحرير الشتوي وسط المحطة المزدحمة أمام فتاة حلوة جدا باهرة جـدا جـدا.. يا نساء العالم اضعتموني يخرب عقولكن، ضحكت.. ضحكنا. سمعته يقترح أن نذهب لنشاهد فيلم «القطار» يسلم على أختي نجوى وعيناه مسدلتان، أحسست بقلقه عندما جلسنا ساعتين بالمقهى أمام بيتنا، ننتظر نزول منتهى ليراها.. فتحي.. فتحي ضاع الزمن الاول، خلل طرأ على شيء كبير لا أعرفه، سفرنا، نومنا، تنفسنا، يمشي بطريقة معينة، ترتيب أزلي محكم، لكن.. شيء مبهم، غامض، لا أعرفه، اعرفه، قلب، ضيع، أزال، عربة نقل داست طفلا، مسحته، صرخت، أغمضت عيني، استيكة مسحت خطا من رصاص، جريت، احترق باطن قدمي، عيناي قطعتـا صوان، حتى أولادهم الصغار.. أين هم؟ الآن.. لحم

يحترق.. يسلخ.. زعقت باقصى ما في كبدي ومرارتي.. فتحي.. زيفر. فتحي.. زيفر..

* * *

عادة زويلية :؟

يصر الزويل على تقديم مشروب أحمر اللون إلى ضيفه، يشبه عصير الفراولة، مذاقه أقرب إلى طعم الرمان الناضج، عادة يشعر الضيف بهدوء عجيب، ثم جوع دائم، ولا يبخل الزويل بتقديم الطعام. طبعا لا توجد هنا أصناف الطعام التقليدية، ولا حتى المعروفة في صعيد مصر الأعلى، إنما تقدم للضيف أعشاب خضراء مطبوخة باللبن، كما يقدمون طبقا به سائل أصفر سميك كالغراء غاية في حلاوة المذاق، يقولون أنه من شجر قريب مقدس، ويرقب الزويل ضيفه أثناء الطعام بعناية، ويصر على عدم ترك بقايا في الطبق مهما كانت الكمية، وكثيرا ما يطلب الغريب- يحدث هذا بخجل أول الامر- كميات اخرى. خاصة العصير الذي يجعل الانسان جائعا باستمرار والذي تظهر آثاره بسرعة على حجم الجسم، أيضا وزنه..

* * *

الميدان يعوم في عينيها السوسنيتين، يروح الرجل ويجيء حاملا الصينية المثقلة بأكواب الشاي وفناجين القهوة وعضير الليمون والملاعق الصغيرة وكوب صغير به عيدان النعناع، ود لو تحدث معه، عرف حياته، أولاده، متاعبه، يقف الرجل لينتظر.. هات

كركدية لو سمحت.. صاح الرجل.. واحد عناب. يرقب ما يروح، يجيء، يتثاءب، تدور عربات الترولي، آه لو يزعق، يصرخ، يخرج الكلام من صدره متدفقا، بقدر ما تمنى أن يبقى وحيدا يسترجع كل ما قالته منتهى، بقدر ما تمنى أن يلقى فتحي، سألها، لك تجارب عاطفية، ابتسمت، أطرقت، أول مرة أخرج فيها مع.. غريب، استعاد مذاق الجملة، لا بد أن يعرف فتحي كل ما جرى.. سيرفع السماعة.. يجيء صوته الهادىء جدا.. أيوه. فيصرخ في عرض الطريق.. لا أصدق نفسي..

* * *

* الليل في مناطق الزويل

(يقول الرحالة الألماني فردريك هوفمان، الذي زار هذه المناطق في منتصف القرن الماضي، بحثا عن الزويل غير أنه لم يلقهم فقد رحلوا عند وصوله إلى المناطق التي دله عليها البشارية والعبابدة، انه كاد يجن من ليل البلاد، ولو رموه في مكان بعيد عن العالم الأرضي كله، لما لقي ليلا أسود كهذا، ينزل بشعا، جامدا كالحديد، لظلمته لزوجة، يترك أثرا من سواده على الأجسام، جدار وهمي أمامك يقول لا يوجد فراغ، لكنه موح بخلاء قصي وعنيف، لو صرخت فالصدى مقتول، ليس ليلا ريفيا فيه خصوبة الزرع، ولا صحراويا جاف الهواء يستحيل على الغريب التحرك فيه، لكن الزويلي - كما يقولون - يتحرك فيه ببساطة وسهولة، كانه يعرف اسراره).

* * *

تغوص رأسي في صدري . يمس ركبتي . الجنين في بطن الأم اغلقت باب كوخي، اسمع وقع اقدام، صريخ اطفال، ضحك نساء، صفير، في الصباح طالعني زيفر حاد الملامح،.. تشكو حريمنا أنك نظرت إليهن. قلت لا ، قال، حتى تنتهي ضيافتك وتلقى صاحبك، لا تغادر هذه الدائرة المحيطة بالكوخ. القى صاحبي، كدت اصرخ فيه، كاذب، لكني لم أفعل، قال لو أردت قضاء حاجتك ازعق بصوت عال أجيء عندك في أي وقت، ثم قال فجأة بصوت هادىء.. اعلم ان الزويلية لا تباح إلا لزويلي، خفت، نظرت الى عينيه، قال ربما نظرت جسم زويلية لكن لو امتدت يدك فلن تلقى روحك، ضيق عينه، ولو فكرت.. مجرد التفكير في واحدة من حريمنا.. حاولت أن تعريها في خيالك.. أثناء نومك فساعرف يا إسماعيل.. عاودني الخوف فلم أكلمه، أقاوم النوم، قرصني جوع، خطأ يتمادى، رمى ظله ولم يرتفع، هذا الوقت تماما أول أمس، كان فتحي يتمدد هنا، ألمسه، أدفع عمري لو أراده الآن، أعرف أنه يعيش، يتنفس. لم يعل بخار لحمه في الهواء، احتضنت الراديو الترانزستور، أدرت مفتاحه، وشيش صغير، كأن جسمي ازداد وزنا. فزعت. عدت ابحث عن الأصوات البعيدة هيه.. تصفيق بعبد.. سيداتي.. سادتي.. التصفق يستمر يتخذ ايقاعا منتظما.. صوت امرأة. حاضر.. حاضر كل ما تطلبونه.. حفل ساهر من أين؟؟ ربما ريفولي.. مسرح قصر النيل.. بلهو العالم.. لن يعرف أحد أبدا أين أنله أين فتحي.. هيه.. هيه..

طاخ.. تا أأأت.. عندي مفاجأة.. أغنية جديدة؟؟

* * *

لا تعنى إذاعات الدول القريبة من الزويل بتوجيه برامج بلغة القبائل المجهولة، أو موجة قوية من البرامج العادية، لهذا تسمع جميع الاذاعات بصعوبة بالغة هنا وتبدو أصوات العالم مكتومة ضائعة. ويلاحظ ان الزويل حتى القبائل الثلاث الاخرى، لا يمتلكون أي أجهزة استقبال.

* * *

كيف لم أفهم من أول يوم؟ منذ رؤيتي زبفر في قرية المنحم، كل ما مر بنا أسلمنا إلى هنا، الطريق، القرى الصغيرة، الفنادق الفقيرة فى المدن الريفية، النساء الحملات فى النوادر، تذاكر السفر، شارع سليمان، دق قلبي، فى هذه اللحظات تخرج دور السينما، سينما راديو.. بنات لحمهن أبيض.. يرتدين الميني جيب، كل واحدة أحلى من الأخرى، ليلة الخميس من الصعب الحصول على تاكسى وقت خروج السينما، الآن تغلق الأبواب الزجاجية، ربما تلفت منهى حولها، يتأبط ذراعها ذراعه سينما يزحف الظل على الاعلانات الملونه، تطفأ الأنوار في الأدوار العليا للعمارات، يرفع فتحي اصبعه، تصور كم رجلاً يشرع في الحب .. يجيب: مليونا وأكثر، يضحك فتحي، تصفق أكفنا،.. مليونان.. الآن تمرق آخر عربات الأوتوبيس عبر النفق، مباني جامعة عين شمس الحمراء آه من البلاط المبلول. النيون. طراوة الزهور فى الحدائق العامة، غناء فتحي بصوت أجش تحت مصابيح الطريق، تنقبض روحي ما مر وهم، كل هذا لم نعشه، لم يوجد، لم يدغدغ حواسنا، وإلا .. أين هو؟؟ خلفنا لنجيء عند الزويل وبضيع فتحي، أنتظر مصيري، لا

أرى امرأة. شارع، أرقب جسمي يورم، يسمن، كله صور في الذهن، خيالات، لو أبكي، أنوح كالنساء، لكني أثق، أثق في هذه اللحظة تماما نتثاءب جندي الحراسة قرب النفق، يضحك صديقان راجعان من نزهة طويلة..

* * *

في الايام التي راحت تنقضي وراء بعضها البعض، بدأ زيفر بجلس مع فتحي أوقاتا عديدة، ويحكي له بعض ما رآه في حياته، وما مر به.

ـ قال: إنه عندما أنهى الطبقة الأولى من عمره، ودخل الطبقة الثانية، أخذه أبوه ورماه وراء الجبال البحرية القريبة، ثم عاد لينتظر طوال الليل، أيضا لا ينام الشيخ صهيج الملثم حتى الصباح، فاما أن يزيد الزويل زويليا جامدا كالصخر، يعتمد عليه، وأما الضياع إلى الأبد، نزل ليل الجبال الغريبة على زيفر كالحجارة، هواؤه حيات تلتف حول الرقبة، الأرض فيه تبدل غير الأرض، سماؤه صقيع، وعليه أن يصارع كل ما يمتد إليه ليسلبه الحياة بأيد فارغة من خنجر أو رمح أو سهم مسموم، عند الفجر تجيء برودة شديدة تزحم الفراغ، إنها أنفاس زويل الكبير الذي يبارك زويليا جديدا، تجاوز اختبار البلوغ، يروح السواد من السماء، تبدأ رحلة العودة، وعند الوصول تعلو الزغاريد وقرع الدفوف، وهذا ما جرى لزيفر قال أن الامر بالنسبة له تضاعف لأن أباه شيخ عشيرة، لكن عند بلوغه بدأ الشؤم والنحس، أبوه أنهى الطبقة السابعة من عمره، ومنذ حول بعيد يسوس أمور العشيرة، يرفع كل كبيرة وصغيرة عنها

إلى الشيخ صهيج الملثم، احترمه، احبه الكل، لكن بعد بلوغ زيفر بدأ الشيخ هوندار يظهر ما في روحه فجأة، هوندار وقتئذ أصغر من والد زيفر بطبقتين، أظهر طمعه في المشيخة، ربما أورث الشيخ صهيج زعامة العشيرة لزيفر، بعد موت أبيه، اذن على هوندار أن يعمل، في عصر يوم بعيد جاء وصاح على والد زيفر، أنت رجل خرفت، وما عدت تمشي الأمور، كثير من الاحداث لا تذكرها لمولانا صهيج، هكذا كف الناس عن احترام أسرة زيفر فجأة، راحوا يرقبون الصراع، منذ هذه اللحظة بدأ الشيخ هوندار يكوع، أي يجيء في وقت الظهيرة ويمدد جسمه على الأرض، يسند رأسه إلى كوعه، ويفكر بصوت عال في مساوىء وأخطاء والد زيفر.. المهم أن الشيخ صهيج الملثم ترك الصراع دائرا فترة كعادته ثم حسمه باعلان هوندار شيخا للعشيرة. قال زيفر: هنا انقلبت أمورهم، كل من احترمهم صار يسبهم، لم يرد أبي فهذه شريعة الزويل، لكن زيفر لم يفهم تماما، كان يحوش الحجارة عن صدر أبيه، يدفع عنه الصبية الصغار غير البالغين لو رموه بالشوك وهو يتعثر في الطريق، حتى عندما قال له ابق يا أبي في الكوخ ولا تطلع لهم، راحوا يدخلون عليه، ينتفون لحيته، وهو مستسلم لا يقاوم، هكذا الزويل، كرر زيفر.. كان وقتئذ صغيرا لم يدرك كل شيء، في مغيب يوم دخلت على أبيه امرأة وضربته ضربا شنيعا، كانت تجيء دائما لأبيه تفشي له أسرار جاراتها، بل وتخبره عن الطريقة التي ينام بها كل رجل مع امرأته، أو فلانة طبخت لزوجها كذا، أو فلان قال لامرأته أثناء نومها.. افتحي فمك لابصق فيه.. من اللذة طبعا، وهكذا، لم يطق زيفر فشتم المرأة، عندئذ صاحت عليه أنت

ابن حرام، سحبته ورمته عند قدمي الشيخ هوندار، حوله جمع من رجال العشيرة، كلهم يسبون أباه، حتى أحبابه، أصحابه السابقون، بطحه بعضهم أرضا، تحسسوا جسمه، بعد صمت قال هوندار: اتركوه لي، علا صراخ، عويل، وصيحات فرح عندما قال خذوا أباه، وانطلقت النساء يحملن أولادهن إلى أبي. أما الشيخ فقد أدخل زيفر إلى كوخه (قال أنه لن ينسى أبدا منظر أبيه وهم يسحبونه بحبل مربوط إلى عنقه، وكثير من النساء يضربنه على إليتيه، كان أبوه سمينا مترهلا) أمسك هوندار بزيفر، منذ هذه اللحظة عرف بين الزويل كلهم أن زيفر لن يقرب إمرأة ابدا، وأنه يمكن الاعتماد عليه في حراسة الحريم عند خروجهن إلى الحمام بلا خوف منه، قال أنه وقف كثيرا عند البركة ينظر إلى بنات الزويل، فيتضاحكن عليه ويأخذنه ليستحم معهن، وعندما احتفلوا بدخوله الطبقة الثالثة، جعله الشيخ صهيج أحد طوافي الزويل في الأماكن القريبة، يستضيف الاغراب من عالم ما وراء الجبال، لا يتجاوزها ابدا الى ما وراءها بعكس الاخرين الذين ربما قضوا اعمارهم يجولون هناك.. قال زيفر أن العالم مليء بالزويل وفي لحظة معينة سيقومون كلهم ليجتثوا الشر، فما يجري بين الزويل هو جزء مما يحدث عندكم، لكننا أصدق منكم مع أرواحنا، (أصغى إسماعيل خائفا، بينما علا صوت زيفر) الزويل في العالم كله، وكل شيء يمضي إلى أوان بعينه.

* * *

يفكر طوال الليل، كيف يبدو أكثر رقة؟؟ هل يمسك يدها؟؟ مجرد اصابعه تلامسها اثناء مشيها حتى الكازينو، لا.. ربما تظن

سوءا ، يكتفي بالمشي بجوارها ، لا يلمسها لحظة ان يعترضها زحام ، شبان قادمون ، يمسك يدها ، فكر ، ما الذي يقوله عندما يراها مقبلة ، يمدح فستانها؟؟ قديمة ، هل يطري تألقها؟؟ يقول لها ازيك؟ يسلم عليها ، يحتفظ بيدها الرقيقه بين اصابعه دقائق ، يطلق نفسا قويا من فمه ، يتصرف على طبيعته ، يضرب الارض ، يعلن فرحته ، تماما كما يفعل إذ يلتقي بفتحي بعد انقطاعهما اياما، يقول لها كيف يراها. عيناها كعكتان ، تنضحان سعادة ، صوتها هش ، شيكولاتة تمتزج شيئاً فشيئاً باللبن. بينما يورق الليل حولهما بالرقة. ابتسمت.. قالت.. أهلاً اسماعيل.

★ ★ ★

مين يشتري الورد مني
وانا بـ... وأغني
صفير ، صفير ، رفيع غليظ..

★ ★ ★

الاغنية التي تلون الصباح ، تبعث أياما بعيدة حلوة لم أعشها ، أيام المدرسة.. حقل قمح أوشك على الحصاد. بهجة السنابل لحظة المغيب ، لم تمر أيام كهذه ، إذ أقوم من نومي أتمنى إنقضاء الكابوس ، ألقى فتحي بجواري ، يزغدني بإصبعه ، أطلب منه أن يكف ، لم أنم طوال الليل ، درت في الكوخ ، حركت ساقي بصعوبة ، تسارعت أنفاسي ، حركتي طرأ عليها شيء ، قطعة اللحم بين الأسنان ، حصوة شائكة في العين ، إنتفخ جلدي ، ليس مرضاً ، ربما ، لا أعرف ، سمنة ، ورم مفاجيء ، اسفل ظهري ، قوة مجهولة أضافت

إلى جسمي كتلتي لحم، عند ركبتي ازداد جلدي تخانة، ضاقت ثيابي، عليّ، كذا فتحة الكوخ، لم أر وجهي، ليس معي مرآة، لكني أشعر بضياع ملامحي في اللحم.

غرزت أصابع يدي في ردفي إسهال يدركني، شعور ما قبل الدخول في مجهول، إضطراب النفس، شلل العصب، إنثيال الذكرى، الزمن، بلعت ريقي، في أي الأيام أنا؟؟

وصلنا الأحد .. مضت .. ليلة .. ليلتان .. أربع .. خمس .. حفرت في التراب خمسة خطوط حتى لا تهرب الأيام، إنحنيت، كدت اتجاوز الباب، زيفر أمامي، يهم بالدخول، ربما لم يغادر مكانه طوال الليل، قلبي يعلو، ينزل، قطار ثبت اندفاعه على سرعة واحدة، عجلاته ترمي نغما لا يتغير، صحت.

فتحي لم يظهر له أثر.. وجهه هاديء، بطن سمكة مفلطحة. صوتي تسلخ، خيط نحيل ينسل، يرفع، يتلاشى.. عاد الأولاد يقفون أمامي، أصغرهم يقترب مني، يلمسني، دفعته بعيداً بلوم. نظر زيفر، إليّ، قلت اخرج إبحث عنه، صوته ماء هاديء، حركاته بطيئة، قلت لا بد أن أمشي.. لن أبقى يوماً واحداً مهما بلغت مدة الضيافة، انقبض قلبي، استدرت واهتزت زوائد اللحم عند أطرافي، أخدع روحي، لن أرى فتحي أبدا، نثر الرمل بطرف عصاه، فوجئت بعيني زيفر، نظرة من عينيه اخترقت جسمي، مجرد نظرة، يقدر وزني، تغوص دائرتا عينيه السوداوين في لحمي، من الذي نظر إليّ نفس النظرة من قبل.؟؟

عجوز يقف عند محطة الأوتوبيس في بولاق، رأيت زيفر في

القاهرة ، زويل آخرين ، منذ أن تكلم معي ولا يتحدث كثيراً ، قال .. إبق هنا وسأرجع ، راح أبوك ضحية الزويل ، أيامك عذاب متصل ، مبطنة بشوك يؤلم .. لا تقرب امرأة ، فتحي يضيع ، أفيق أنا ، أطلع فوق الربوة ، أصرخ منادياً زويل الكبير أن ينزل من بين الغمام ، يكف قومه عما يفعلون ، يعيدون إليّ فتحي .

تطلع الشمس مهرولة في السماء ، وجدت هكذا منذ ألف مليون عام ، لم تعرف الغروب . السماء خالية من الغمام .

أين زويل الكبير إذن؟؟

سمعت الضرب المنتظم الآتي من وراء التلال ، عشرات الأيدى ترتفع بعصى غليظة تهوي بها على شيء ما فوق الأرض ، لو أخطو ، أعبر التلال ، أرقب تفاصيل الحياة الزويلية ، حمت ، اغمضت عيني خطأ وقع ، ما الذي فعله فتحي لهم؟؟

لحظات أرى زيفر وكأني أعرفه من سنين ، أيضاً الزويل ، واقع عشته من قبل ، أسمع صياحهم المهيب لحظة الغروب ، ليخفق قلبي ، ترجف روحي بأحاسيس شتى ، أدعو معهم زويل أن ينقذني ، هو لا يرضى السر أبداً ، لا أطلب إلا أن يدعونا نمضي .. السودان .. ها .. لن أرى قنا حتى ، أدرت الراديو ، تطلع الشمس فتختنق أصوات العالم . في لحظة معينة تجف البطاريات ، فلا أسمع حتى همسة .

★ ★ ★

انه الضحى .. فجأة ، يختفي الأولاد ، ترقبني عيون خافتة ، لا أفارق مكاني كما أمرني زيفر ، ينزل ستار من الصمت على المنطقة ، جبل آخر غير مرئي ، يبدأ الأزيز خافتاً ، وهم يتزايد ، الصوت

دوائر، دوائر، تعلو من أسفل، تنزل من أعلى، يبدو جسم الطائرة صغيرا مجنحاً، لا يتحرك، بعد مداومة النظر يتغير موضعه، كلما ابتعدت عن الجسم المتحرك، تقل سرعته، عند شاطيء الاسكندرية نظرنا مركباً أبيض اللون، يبدو ثابتاً عند الأفق، رحنا نتراهن على نوعية المركب، قال فتحي.. إنها حربية.. أكدت أنها ركاب، قال إنها تمشي، قلت لا تمشي، وبعد دقائق ننظر الأفق، ناصع الزرقة، يتنهد البحر كعذراء منسُوفة، اختفت المركب، خفق قلبي، ابتلت روحي، ريش حمامة أغرفوها ماء، لوحت بيدي، زعقت بأعلى حسي، يطير الجسم بسرعة ألف كيلو متر، ويتمّدد الركاب. ينظرون من النوافذ المستديرة، يلمحونني، يرقبونني، يعرفون إسماعيل، ينتزعني الرخ، لن يدركني زويلي ولا في منام، لا أشرب العصير الأحمر، الجوع الدائم، أغمض عيني، يتحسس زيفر لحمي، يتشوه جسمي، تضيع ملامحي، ابدا، ابدا، لن يروني، تبدو لهم الأرض من أعلى سهلة منبسطة، خالية من الزويل، صفحة في أطلس، أكاد ألمح رأس القائد، أي علامة على الذيل؟؟ إلى أي دولة تنتمي؟؟

تصفع أشعة الشمس عيني، تبهت الألوان، لو يبقى جسم الطائرة محلقاً أبداً، أبداً، تمضي، تندفع، نقطة، لا عائق، النبات، الحجارة، الصوان، مغارات الجبل، عقارب الخلاء، وقف شعر رأسي، أي صمت يهدر في الخلاء في صدري، ضاع فتحي، ضاع الامان، إنسان، كيان أحلام، الأماني والذكريات، آلاف اللحظات من الضيق، الفرح، قرارات سفر، كله يتركز ملخصاً في نفايات

الزويل، تلفظ فوق الرمال، لا شك، لا جدال، ضاع فتحي اليوم، غداً أروح أنا، أنا، ضربت الأرض، أفقأ عيني، أطحن الرمال تحت ضروسي، يتآكل قلبي، يهريه البوتاس، مغنسيوم يشع لا ينطفيء أبداً، يحرق، يأكل قلبي، يذيب مثانتي، آه لو أرى منتهى لو تبدو أمامي، وهم حتى، طيف، منتهى الآن وهم، قبل سفري وهم، منتهى لم توجد أبداً، المسافر على حافة الفناء يلمح الماء في أقصى الصحراء، وهم، كيف يمشي العالم؟؟

النخاع في مجرى عظامي مر، هجرني الطائر المجنح، مات الرخ، أقبل الأرض، أناجي الأولياء، زويل الكبير أناديه، أتضرع إلى الحسين سيد الشهداء، خلاصة روحي ودنياي، يحز رأسي في كربلاء، يسفك دمي تشربه الصحراء، يعلق رأسي فوق البيارق، تنثر أطرافي في أركان الأرض، ليس لي من يجمعها؟؟ أتوسل لأبي؟؟ أقبل يد أمي، أزعق في وجه الخلق، هند بنت عتبة تترصد حمزة بن عبد المطلب، تأكل كبدي، رموك يا حبيبي، يا حاضري، يا منتهاي، تحت أسوار الطائف بالحجارة، عذبت في الهجير، آه تشج رأسي، يدمي الشوك قدمي، تأكل حرارة الصخر قلبي، أصرخ فيسكت العالم، ينهد العالم، ما الذي فاهت به شفتاها؟؟ قالته آخر مرة؟؟ أربع عشرة مرة نلتقي، ما الذي يغير الأشياء، يبدل الجوهر، الجميلة تمسي عجوزاً، الجد هزلاً، الظلام مرآة، النهار بحر حزن كالقار، البغض عشق، يلون الكلمات، يجفف النظرات، يبقر القلوب، ما الذي قالته، ربما تضحك الآن؟؟ تمر بلحظة سعادة، تشرب كوب ماء، لا أخطر في ذهنها صورة حتى، من أين جاء زيفر

من دفع به الينا؟؟

يترصدنا الزويل منذ الصغر ، سائق النقل ، أهو منهم؟؟

هل فتحي منهم.

أنفاس السنين ، إختنقت روح العمر ، ذبحت منتهى ، أروح أنا ، أضيع أنا ، أختفت الطائرة ، وبقي صدى الصوت ، حمض الكبريتيك يأكل روحي لو أرى منتهى وأتلاشى ، البحر ، يقتل العالم أحلى وأرق ما فيه. ألحق حبيبي ، صاحبي ، شقيق عمري ، عالم تحت العالم يتقرر فيه ما القاه ، أسلم النفس لزيفر ، آه من موج البحر ، انتابني العطش ، اندفق السواد القاسي يغمر قلبي ، ما حولي ، وزعقت بأعلى صوتي.. زيفر ، زيفر.

* * *

لمحة من الحياة الزويلية..

في وقت بعيد من التاريخ الزويلي كانت النساء يتمتعن بسلطات كبيرة، وقيل أن الإبن كان ينسب لأمه، لكن مكانة النساء انحطت شيئاً فشيئاً على مر الزمن، حتى أصبحت المرأة الآن برغم كل ما يغلف هذا.. مجرد مطفأ لشهوة الرجل، ومنجبة أطفال، وبرغم هذا، فهن يقمن بكثير من الأعمال الشاقة، في صباح كل يوم يخرج عدد كبير من الزويليات يحملن فوق رؤوسهن أكواماً من نسيج يشبه الخيش الكهنة يقمن بفرده على جوانب التلال الحجرية، يرشسنه بالماء، ثم يضربن النسيج وقتاً طويلاً حتى يتحلل ويتحول إلى شعيرات طويلة وقصيرة يقمن بجمعها، تعود كل منهن بكتلة شعر هائشة، في العصر يقعدن أمام بيوتهن، يغزلن

الشعيرات، يحولنها الى خيوط رفيعة، ينسجن منها هذا القماش الزويلي المتين، ويرتدونه رجالاً ونساء، ولا يخلع الثوب إلا إذا تمزق، وتهرأ، وأصبح من المستحيل البقاء به، وقبل المغيب تخرج الزويليات، يجمعن بعض النباتات المنتشرة حولهن، يصطدن الفئران الصحراوية الضخمة، التي يزن الواحد منها رطلاً ويشبه الأرنب.

قيل انهن يصطدن الحيّات الضخمة غير السامة التي تقتل فريستها بالإلتفاف حولها وإعتصارها ، يصنعن من جلودها أحذية للطوافين الزويل، يتمكنون بها من إجتياز الصحراء التي تفصلهم عن العمار البعيد، والحب عند الزويل محدد، واضح، وصريح، اذ يتجاوز الزويلي مرحلة البلوغ، ويباركه زويل الكبير وراء الجبال، يبحث له أهله عن عروس، غالباً من أقاربه، بعد الزواج ينتظر أهل الزوج أن تحمل امرأته، وفي كل يوم يميل الأب على إبنه يستفسر منه، هل ظهرت علامات الحمل؟؟ ويكون أهل الزوجة أكثر قلقاً، وإذ تظهر علامات الحمل تعم البهجة، ويمشي الرجل مزهواً، أما إذا لم يحدث، فيعقد والد الزوج والزوجة إجتماعا، يبحثان فيه، أين العيب إذن؟؟ لو ظهر في الزوجة قضي عليها أن تعيش طوال عمرها وحيدة، منبوذة، مهما بلغ جمالها، وسرعان ما تزحف السنين على وجهها، يضمر نهداها من بعد امتلائهما باللبن، ينبت لها شارب، وتعامل على أنها عجوز مخرفة.. مع أنها لم تتجاوز سن الشباب.

* * *

عن الطريق يفصلها زجاج.. سحابة بطيئة فوق الميدان ترسل

رياحا باردة، يسرع المارة، لذة أن يرقب الناس من وراء زجاج، لو ينزل المطر، صرت عجلات المترو عند المنحنى الحاد.

عاد ينظر إليها، أصابعها متشابكة فوق سطح الفورمايكا، تهوى شرب المثلجات في الشتاء، عاد بعينيه إلى الميدان.

لو فتحي معه الآن، بسرعة عبر الطريق مجموعة من الجنود، توقفوا قرب محطة المترو، برز من شارع جانبي بعيد عن نطاق رؤيته لوري ضحم بثماني عجلات.

قالت أنها نرغب في مصارحته، ضاعت نظراته في عينيها، يذاكر طوال السنين، يمتحنونه، بتردد على الكلية كل يوم، لحظة إعلان النتيجة لا يشعر بأي شيء، فرحه، حزن، يجف قلبه كصحراء، إذ تمر اللحظة يسترجع كل ما مر به، ما فاته بتأن، على مهل. قالت عيناه: كيف؟ أدارت الكأس بين راحتيها.

قالت أنها رأته مدفعاً فلم تشأ أنْ تصدمه.

نظر إليها بإحساس الصائم في منتصف نهار صيفي. أطل على باب الحديد.

ضحك بصوت عال أول مرة جاء معها وأعلن أن لقاءات الشتاء كلها ستتم هنا، أول مرة شربا عصير برتقال، كلمته منتهى عن أبيها، حبها له، عن أختها الكبيرة، ردها عليه صامت، إغماضة من عينيها فقط.

قالت أنها ليست نادمة لأنها عرفته فهو إنسان طيب، رفع عينيه ركز نظراته على وردة حمراء صغيرة لها فرع أخضر من البلاستيك تتوسطها نقطة لامعة من زجاج. قالت إنها تتمنى لو ظلا..

أصدقاء.. سألها بلهجة مستطيلة مسطحة كلوح الثلج، هل تعرفين فؤاد من مدة؟. عيناها تسرحان، سبع سنوات، فكر، لا بد أنها تتخيله الآن، تتذكر مواقف معينة بينها وبينه، تحرك في نفسه فضول، يسأل عن شكله، سنه، طوله، هل هو وسيم؟؟ هل استقبلته في المطار عندما وصل من غيبته، ربما يلتقي به مصادفة يوما ما؟؟ يركب بجواره الأوتوبيس حتى منتهى وهم، ولم يعرفها، تساءل.. أين يروح ما إنقضى؟؟

فجأة قامت، وجهها أكثر رقة، أحلى، عيناها أوسع وأعمق، تحيطها هالة جمال خفي.. تقف، لو أطلب منها البقاء دقيقة فلن تقبل.. يا للمصيبة، إنه يحبها فعلاً، لم يدرك هذا من قبل كهذه اللحظة، قالت.. أستأذنك، أغلقت حقيبتها الصغيرة، أسند ذقنه إلى راحتي يديه، أستأذنك، كلمة واحدة، موجز انباء، لم تبق دقيقة، ثانية، لم يلتفت وراءه، فيم الاستئذان؟؟

كلمة واحدة قالتها، مقص البائع يقطع عرض القماش بضربة. مطواه تفتح فجأة لتبتر الإصبع، كلمة واحدة تقولها منذ مجيئها، كيف يروي ما جرى لفتحي، أي الكلمات؟؟

هبط قلبه بضعة سنتمترات داخل ضلوعه، راوده الشعور أنه موشك على الاسهال، ما هذا؟؟

بدا تمثال رمسيس في قلب الميدان علامة استفهام غامضة، لن يراها أبدا، هكذا خمن.. أستأذنك؟؟ مترو يندفع في نفق يهرس طفلا.. يمحوه.

* * *

قال زيفر أن عدداً من أشداء الزويل خرجوا إلى النواحي المحيطة، يجيدون إقتفاء الأثر يشمون رائحة الإنسان على بعد مقداره ربع نهار، اقشعر جلدي، اقترب مني، قعد، أمسك ذراعي، مشت أصابعه فوق جسمي، لا يخزني لمسها لتخانة جلدي.

ضاقت ثيابي فخلعت القميص وأحطت به نصفي الأسفل، انتفخ صبدري إلى أعلى، لحم، شحم، خلايا دهن، جوع لا يفارقني يعلو اللحم حول عيني حتى يحجب نظري.

قال زيفر. إنهم ربما رحلوا إلى الجنوب، هكذا أعلن الشيخ صهيج الملثم. صوته يصل إليّ بطيئاً، قلت لماذا هو ملثم، قال لأنه شيخ الزمان، قال زيفر، بعد موت أبي، وإذلال الشيخ هوندار لنا، طاف بذهني خاطر وألح عليّ، رؤية الشيخ، أقصد وجهه، لكني سمعت حكاية قديمة تروي عن شاب زويلي عاش منذ أربع طبقات، أعلن عن رغبة كهذه، جهر بها في ليالي القمر، حذره الشيخ صهيج، فأصر، عندئذ جاء شيوخ العشائر كلهم، أدار الشيخ صهيج ظهره للجميع بحيث يصبح وجهه للشاب، ورأى الجالسون طرف اللثام يزاح فقط، يقال أن جسم الشاب تصلب في الهواء وثبتت عيناه على الشيخ صهيج، أقول ثبت مكانه، وعندما أدار وجهه كان اللثام قد عاد كما هو، دفعوا جسم الشاب المتصلب، وجدوه ميتاً، زعق الزويل، هللوا، ومنذ اللحظة لم يقدر واحد على التفكير في رؤية وجهه، قلت أنا جائع يا زيفر، يهرش شعره بقطعة خشب، ينزل العصر خالياً كئيباً. ربما قرصتني بعوضة، أصابتني بهذه السمنة.

الدهشة في عينيه. يتحسسني، لا أقاومه، ينفخ خلف أذني، لا يقشعر جسمي. لا أمشي، يتسلخ بين وركي.

★ ★ ★

سماء يناير فوق العمارات الهواء البارد، الشتاء في الميدان، فجأة رأى والده، قادماً من الناحية الأخرى، تراجع حتى وقف تحت مظلة محل لبيع الزهور، أبوه يعبر الطريق، يراه أول مرة .. يلحظ مشيته البطيئة. نحول جسمه، الشيخوخة تنقض حجم الجسم، حاول أن يخمن، إلى أين يذهب الآن؟؟

خرج مبكراً من الوزارة، كأنه لمح في مشيه المه الذي بدا عليه من أيام، لا يخفى أبداً ما يمر به، يحكيه لأمه، من حجرته أصغى، جاء شاب في عمر إسماعيل، مهندس، اختلفت الادارة على بعض التفاصيل حول تركيب ماكنات الصباغة بوحدة أخميم، أحمر وجه أبيه، قال أنه يعمل في هذا منذ أربعين عاماً، يحفظ الوحدة، تفاصيل المبنى، ببساطة قال الشاب، الدنيا تغيرت، الماكينات التي تعرفها تغيرت، قال المدير.. هاشم خريج هندسة يا أحمد أفندي وعنده امتياز، لم يتكلم، لم يناقش، هل يعرف الواقفون أن الماشي هناك والده، انتابه حنين جارف، يندفع يفسح ممراً بين الزحام، يعانقه، يعبر له عن حبه، قال والليل يرتعش: كنت سأقول لها أني في الهندسة، لكن ما فائدة هذا عندهم؟؟ لم يشعر نحوه بحب مثلما يشعر الآن، أدرك أنه يعيش بعيداً عنه برغم قربه الشديد من البيت، ثبت مكانه. رن جرس الترام، مشت امرأة تدفع عربة صغيرة، يرقد فيها طفل بلحاف أبيض، رن جرس تليفون في متجر قريب،

عاد ينظر، أين راح، اختفى، دار بعينيه، لسبب ما أضاءت لمبة حمراء في عز النهار، وكاد يبكي بصوت عال.

* * *

سحبني زيفر، نزلنا منحدراً، يترجرج لحمي، تسندني يده إذ أوشك على السقوط، أخبرني أنه مشى حتى السودان، يلف المنطقة عدة مرات في الأسبوع الواحد.

يستضيف الأغراب أمثالي، هذا أهون من حماية حريم شيوخ العشائر أثناء قضائهن حاجتهن، أخبرني أنه دخل القصير، توقفت، يخشخش الهواء في صدري، قال لم يبق الكثير، عند منخفض أشار، لم ينقبض قلبي، لم أغمض عيني، تواردت على ذهني صور بعيدة، البوم يقلب بسرعة، كوبرى الجلاء يلفه الشتاء، عناوين الصحف المغبشة في الصباح، العربات المليئة، الى الجامعة، تحركت في قاع روحي آثار نشوة قديمة لمصادفة رأيت فيها منتهى، ضمت شفتيها محذرة: لا تزعق الناس حولنا، أن يلقى الإنسان صاحبه أو صاحبته مصادفة في مدينة الملايين، الزحام، درت متمهلا، يتمدد الهيكل رمادياً جافاً، الرسغان مرفوعان إلى أعلى، يحوشان وهماً لا نراه، تنثني الساق أسفل الجسم، لكن الطول، الثياب، لمس زيفر الثوب الطويل، رفعه، شخص تقيأ في فمي، عنكبوت صغير جداً نسج بين فراغ الساقين، لم تنبعث أية رائحة، نظرات زيفر تغرقني، قال.. نحن أيضاً في حيرة، لم ينقص زويلي واحد، إذا لم يكن صاحبك فمن هو! برغم ضياع الملامح، انسلاخ اللحم عن العظم، لو فتحي لعرفته، فتحي أقصر.

إلى هنا أيها السادة ننهي برامج..

نستأنف..

لا يخرج جده من البيت، يقوم مبكراً، يشرب الشاي، يرتدي ثيابه كاملة، رباط العنق، يقطع المسافة من حجرة نومه حتى الشرفة متوكئاً على عصاه، يجلس حتى الثانية ظهراً، بعد الغداء يروح، يجيء، ربما كَسَر كوباً زجاجياً فجأة، يتلفت حوله مذعوراً يعتذر.. في المساء يبدو حائراً، ترتجف دائرتا عينيه، بهت السواد فيهما، يفتح الثلاجة، يأخذ زجاجات الماء الممتلئة، يدخل المطبخ، يفرغها، يملؤها من جديد، أمه لا تخفي ضيقها، نظرة في عينيها لم تغب عن أبيها العجوز، راح يكرر، آسف، يرص قوالب السكر، يرقب التليفزيون مغمض العينين، يقوم متجولاً في البيت، يطل عليه، إذ تمر أمه يقول بسرعة.. سأنام. سأنام يا إبنتي، يقف مدة بالباب.. لا يتحرك.. يقول.. تفضل يا جدي.. فلا يرد..

* * *

ضاعت ملامح أبي، وجه أمي، نجوى، أنظرهم من خلال ضباب يوم شتوي، من عينين تدفقان دمعاً، أبي يصلي الجمعة، الجامع مزدحم، يسلم بعد الصلاة على الجالس بجواره، يقول: والله المصائب تنزل من حيث لا ندري، فيتساءل جاره، كيف.. ولدي سافر من اسبوعين ولا أعرف عنه شيئاً أبداً، يسأل الجار. هل معه أحد، يرد أبي، أحد أصحابه، يتدخل ثالث، يعلن أن الصاحب لا يفسده إلا الصاحب، يطلب من أبي قراءة الفاتحة ليهدي ابناءنا فهو أيضاً له..... ينصرفون، لا أذكر حتى وجوه أهل مدينتي، أتخيلها، مليئة

بالزويل، يبثون فيها، يطلون من نوافذها، ينشرون الغسيل في الشرفات، يقفزون من الأوتوبيسات، يتأملون قوائم الطعام في المطاعم، يرشون الطرقات بالمياه، حاولت استرجاع صوت أبي، طعمه، عضضت لحمي، حنين لدغني، حركت جسمي المنتفخ.. آه لو أرى منتهى.. امتلأ حلقي بحراشيف السمك، لو أسمع وشيش البحر، صوت منتهى، أراها من بعيد، تمشي أمام الفتارين، شوارع الإسكندرية المنحدرة ناحية البحر، تمنيت العيش فيها مع منتهى، أراها ولو معه، يتأبط ذراعها ذراعه.

* * *

صباح جمعة، الثامنة صباحاً، رائحة الإجازة في الهواء، تخف روحه، يمشي في الطريق الهادىء حتى روكسي، المحلات أنيقة، حتى البنات لا يوجدن بهذا الجمال إلا هنا، آخر جمعة، بعد آخر مرة رأى منتهى، قالت له ببساطة تخفي كل ما بينهما.. أستأذنك.. توقف عند محطة المترو. تمتد حدائق الميريلاند، فجأة تجمّع ما قالته، ما عاناه طوال أيام، يتكثف إحساساً قاسياً يحز قلبه، عض شفته، غمره إحساس بشع بالأسى، خيل له أنها تحبه، تذكر تفاصيل صغيرة، نظراتها إليه، عباراتها الموحية، لكنه أدرك الآن أنها لم تقل له أحبك، صراحة، قال فتحي أنه السبب، هل يندفع شاب في زماننا هذا إلى فتاة يحبها مثل هذا الإندفاع، لو عالج الأمر بحكمة لأقبلت عليه، لكنه فرش عواطفه، صلب روحه فوق لوح رخامي، دق المترو جرساً قصيراً، هب هواء نقي بارد محمل بحزن رقيق حاد كسن الموسى، عض شفته، يرقب بعينيه شاباً يماثله عمراً، يهمس

بحديث خفي إلى فتاة بيضاء أنيقة.. تبدو كأنها تذوب ولها فيه..

رأى الرجل، ينظر حوله، محني الظهر كأحدب، تهاوى قاعداً فوق رصيف الميدان، حمال يرمي جوالاً ثقيلاً من الدقيق، نظر إليه بعص المارة، قال أحدهم بصوت عال.. سرقوا منه أربعمائة جنيه.. أصابعه تتشابك فوق صلعته، ذيل جلبابه بين أسنانه، لا يفارقه، تنفسه عال، سريع، اقترب إسماعيل منه، تقطر جبهته عرقاً، قال.. اذهب يا عم إلى النقطة.. أمامك هناك.. هبّ الرجل كالملسوع، ردد.. نعم.. نعم الى النقطة. إتجه حيث تشير يد إسماعيل، نفس إنحناءة الظهر التي فاجأته صاح شاب من الواقفين، يا عم انتظر، فتش نفسك أولا. ردد الرجل.. آه بالضبط أفتش نفسي أولاً، انقبض إسماعيل، تراجع خطوتين، ضحك شاب، الرجل يصدق كل ما يقال، زعق آخر، من يدري ضاع منه المبلغ أم لا؟؟ اذهب إلى النقطة. آه.. النقطة.. يا عم اقعد. آه لازم أقعد.. شمال يا عم. شمال، يروح، يجيء. يضحك الواقفون، والله مجنون.. آه مجنون، فجأة يزعق الرجل. والله ما هي فلوسي يا ناس.. تهمس عجوز. حرام يا خلق. تراجع إسماعيل فوق الرصيف إزداد المارة حول الرجل.. قبضت يد خشنة أمعاءه.

* * *

كرر زيفر، إنه لم ير ضيفاً سمن بهذه السرعة، سحبني من يدي، أمشي متباعد الساقين يترجرج لحمي، بدا لي كزوائد، قال إنه سيصحبني إلى كوخ عجوز لتعرف حقيقة حالي، قلت هل أعصب عيني؟ قال لا، اليوم سمح لك الشيخ صهيج بالتجوال بين خيامنا كما

ترغب، النساء يقفن، يحملن اطفالهن الصغار أمام الخيام، بعضهن اقتربن مني، تحسسن ظهري، ضربني صبي صغير على فخذي، حرقتني عيناي، النساء يبتسمن، لون وجوههن غريب، لست غريباً عنهن، ما المانع في أن أكون واحداً منكم، زويلي، فلا أضيع، لا أختلف عنكم، لا تختلفون، كأني لم أغادر مدينتي، شوارعها، تزدحم عند الأمسيات بالزويل، العيون نفس العيون، شعر الرأس، ما يفكرون فيه، يأكلونه، آه لو أزيح حاجز الرمل بيني وبينكم، سمح الشيخ الملثم بالتجوال، لا أعرف كم من الزمن أُمارس هذا؟؟ دخل خيمة، ضوءها في لون الرماد، جلست، اقتربت مني عجوز، شعرها ليفة قديمة، قلبي نبقة مطعونة حزناً، لو يرق قلبها، لو يأمر الشيخ صهيج بمعالجتي، إرسالي إلى العمار، زيفر، جاءت نساء أخريات، أحطن لحمي، لمعت أسنانهن في عتمة الرماد، زعق زيفر باللغة الغريبة، في القناطر الخيرية مجرى مائي، يتقدمني فتحي، بقفزة واحدة يعبره، أتأخر ثواني، غير أني لا بد أقفز، الدور عليك يا إسماعيل آه لو أسمع بوق عربة مفاجئا، يندفع رجال الهجّانة، يبرق النهار، يضوي، تحدثن طويلاً، يبدو الرضا عليهن، وجه فتحي قبل ضياعه بليلة، داخل الكوخ، قلت والليل فوقنا، لو معنا.. قام فجأة، قال اسكت، أنت هكذا كالأبله، أحسست به يطرق في الظلام، قال لو تصرفت كأي واحد لنلت منها ما تريد، لم أعرف، أيسخر؟ أهو جاد، لو أنك أخذتها في بيت أحد أصحابنا العزاب.. لو.. لم أكلمه، لم أوقفه، قال: لم أشأ أن أصدمك هناك. ما الذي يقصده، عنده ما سيقوله: غير أنه كف فجأة.. قال: إنها لا تستحق.

أنت خائب يا اسماعيل في فهمك للناس. عض شفتيه، لم أطلب منه تفاصيل، ربما، سألت، عرفت. لم أطلب تفاصيل، ربما أخبرني بما يجعل الأشياء تتهاوى، تنهار قلت: لن نفتح الموضوع أبداً. استعدت الموقف كاملاً.. ما الذي يقصده. زعق زيفر.. فتح باب الخيمة. أزاح جانباً كاملاً من جوانبها. عيون ضيقة حادة تطل من فوق بعضها البعض، أطفال، رجال، دخان يملأ الهواء، لمحت قشاً أحمر اللون ينطاير في الفراغ، إمرأة تمسك سعف النخيل الأخضر. بنات صغيرات شبه عرايا ينفخن في قواقع صغيرة. منذ وصولي لم تراودني رغبة في إمرأة، أغرق جسمي عرق له بخار، ارتعشت أطرافي، زعق زيفر للمرة الثالثة. الألفاظ لا أفهمها، تراجعن خطوات، أحاطتني العجائز، خلعن ثيابي، تحجرت عيناي، ثبتتا فوق دائرة صغيرة خضراء، وشم يتوسط ذقن بنت زويلية خارج الكوخ تنظر إليّ، لا تنسيل عينها من عليّ، أرعشت الذكرى روحي. أين فنحي، ما الذي يقصده؟ قلبي ينزف دمعاً، لو أرى البحر.. منتهى.. أسمع صوتها. كلمة واحدة.. أستأذنك.

(٢)

الزويل

مضبوطات الدكتور جعفر البيباني

مقدمة

الف وسبعمائة وثمانية وتسعين بالتاريخ الإفرنجي.

التاسع من مايو

في هذا الزمن البعيد، بدأ طوافو الزويل يرصدون مجيء جعفر البيبانى، بدأوا بتتبع جده السادس تاجر العطور الواردة من أركان الدنيا الأربعة، الرجل الطيب، التقي، إذا مامضى إلى الصلاة لا يغلق دكانه أبداً، يتركه في رعاية جاره، يمضي إليه سكان الحي، عنده يحلّون منازعاتهم، يصلح الغاضبة على زوجها، يعيد الإبن الضال إلى أبيه، وعندما جاءه ملاك الموت لم يعلم أن كل شهيق، زفير، عد عليه، خطوات قدميه فوق البلاط المضلع، ركوعه، سجوده، المرات التي لامست أصابعه حبات مسبحته، والجد السادس لجعفر البيباني أول من وضع تحت أعين طوافى الزويل بعد أن

تجمعت أدلة قوية وشواهد مؤكدة حوالي عام ألف وسبعمائة وتسعين بالتاريخ الإفرنجي ، تشير إلى أن هذا الجد السادس هو أحد طواقي الزويل الذين أرسلوا إلى عالم ما وراء الجبال في إحدى المهام الخاصة المتعلقة بقومه ، ويبدو أنه تعرض لغواية ما ، أو إغراء معين ، وربما عوامل خفية لم تبد واضحة وقت حدوثها لكن لو طال غموضها قرونا فلا بد أن تُعرف ويُكشف عنها كاملة ، وتمكن هذا الطوّاف الزويلي من الإفلات والإندماج في حياة الحضر البعيدة تماماً عن الحياة الزويلية ، ويبدو أنه مارس عدداً من المهن والأعمال حتى استقر تاجراً للعطور في درب ضيق بالمدينة الكبيرة ظناً منه أنه لن يكشفه أحد ، وبمجرد إندماج الزويلي في حياة الحضر « لم تحدث هذه السابقة إلا نادراً كما يؤكد شيوخ الزويل » يصبح معادياً لقومه الزويل ، وربما اشترك في أعمال تضرهم أو تلحق الأذى بالطوافين المنتشرين في الدنيا كلها ، من هنا وجب البحث عنه ، والكشف عليه ، إن مات هو ، فمن الضروري تتبع أبنائه ، ورصدهم ، لا فرق بينهم وبين أبيهم ، أليسوا من نسل الزويل ، تجري في عروقهم دماء زويلية . ومن خلال المراقبة الدقيقة والتقارير المقدمة من المجموعات الزويلية المختلفة ، يمكن استخراج الحقائق ، وتحديد اللحظة الحاسمة بواسطة الشيخ الملثم نفسه منه السلام ، واللحظة الحاسمة تعني استرداد الودائع الزويلية الآدمية في عالم الحضر حتى لو كان المقصود لا يعرف أن أصوله زويلية ، وأن أباه ، وجده وجد جده ينتمون إلى زويلي آثر الهرب من عالمه خلال تكليفه بإحدى المهام المتعلقة بقومه ، ويعتبر الزويلي استرداد الزويلي أو ابنه أو حفيده

حتى الحفيد التاسع واجباً مقدساً، من هنا استمر طوافو الزويل يجمعون الأدلة والشواهد لمدة ثمانية أعوام كاملة حتى تقرر وضع الجد السادس للدكتور جعفر البيباني تحت مراقبة دقيقة لا تغفل حتى يتم التأكد تماماً من حقيقته، وعندما مات بدون اكتمال الدلائل وضعوا ابنه تحت المراقبة التي دعمت تدعيماً جديداً وتنوعت أساليبها، ثم واصلوا تتبع الأبناء حتى رصدوا عمر البيباني، بدأ موظفاً صغيراً في وزارة الأشغال، تدرج في المناصب، تولى تفتيش الري في المينا، قضى بها زمناً،، بعد عام من زواجه بابنة تاجر غلال أنجب فرحة عمره الأولى، ذكراً أسماه جعفر، ومنذ مجيء جعفر الصغير إلى العالم، أحاطته عيون الزويل الفاحصة، بدأ هنا عام ألف وتسعمائة واثنين وأربعين بالتاريخ الإفرنجي. «الموافق للحول الألف التاسع وأربعمائة وسبعين طبقاً للتقويم الزويلي والحول الزويلي يوازي أربعين عاماً وستة شهور بالتقويم الميلادي، ويبدأ تقويمهم منذ اختفاء زويل الكبير في الغمام» تتبعوا صرخاته الليلية، نمو أسنانه والتقطوا صوراً عديدة خلال نموها في فرص عديدة مختلفة، وفي هذه الفترة استطاع الطوافون الزويليون تحسين وسائل الرقابة على الأشخاص بحيث لا يغيب عنهم الفرد طوال الليل والنهار، راقبوا أصحابه، عرفوا كل شيء عن حبه الأول في كلية الطب، بلغ من حرصهم على إخفاء أنفسهم أنه لم يشعر بهم أبداً، مع أنه يراهم كل يوم، عند باعة الفاكهة، قاطعو تذاكر في دور السينما، موظفون بالمكتبات العامة، جيران يسكنون العمارات المواجهة، تبادل معهم التحية والمودة، لم يعرف أبداً، حتى حانت لحظة معينة، حددها

الشيخ صهيج الملثم، بعد أن تجمعت أدلة قوية وحقائق دعمتها التقارير الواردة بلا توقف عبر السنين من طوّافي الزويل، والتحليلات الدقيقة التي أجريت على ما ورد في هذه التقارير من جيل إلى جيل زويلي، بالضبط تمام السادسة وأربعين دقيقة، مساء أربعاء حزين الوجه، بعد بلوغه عامه السادس والعشرين بثلاثة أسابيع ويومين، المكان، منتصف المسافة بين متجر يبيع الأقمشة الصوفية بميدان الأوبرا وجامع قديم، عند ناصية شارع يتفرع من الميدان، سكانه معظمهم نوبيون، به مطعم تخصص في تقديم السمك المقلي، ومتاجر تبيع الأدوات الكهربائية، مقهى دائم الازدحام، في نفس الزمان والمكان، تقدم طوافو الزويل، واحد منهم كلف بأن يحاذي الدكتور جعفر البيباني، يجاوره تماماً بحيث لا يتقدم عنه أو يتأخر خطوة، يضع يده على كتفه، يقول كلمتين، عدد حروفها تسعة.

«تسمح معانا»

كأن يداً من حجر صدمته فوق رأسه، تساءل فيما بعد، ردد كثيراً بينه وبين نفسه، كيف لم يصرخ، لم يطلب النجدة من الآف المارة، نظرة الطواف الزويلي، ثلجية، باردة، تقول أنه لا فائدة، العالم حوله خلاء رغم ضجيجه، لا عاصم له، لو صاح فلن يقترب منه رجل ولا أنثى أو طفل حتى، سيولون عنه رعبا، يبتعدون فزعاً، مضى لينا، طيعاً، خواطر صغيرة عبرت ذهنه، المرضى الذين ينتظرونه، أمه المترقبة عودته في شرفة البيت، هل يرى هذه

البيوت مرة ثانية؟؟ هل يعود ليمشي في نفس الطريق، لم ينتقلوا به مباشرة إلى مضارب الزويل «في هذه الفترة انتقلوا إلى منطقة محاذية تماماً للبحر الأحمر، تقع على بعد ثلاثين كيلو متراً غرب برانيس» بقوا أياماً في أحد بيوتهم الخاصة التي يقيمون بها في منطقة المعادي الهادئة البعيدة عن الحركة والضجيج، وفي هذه الفترة قام فريق منهم في إعداد مطلبين مفصلين، الأول يحوي المضبوطات التي استطاعوا الحصول عليها من حاجاته، ثم إيضاح سريع لما يغمض ويعسر فهمه، أما المطلب الثاني فيوضح خطواته خلال الساعات السابقة على رحيله إلى عالم الزويل.

«المطلب الأول ويتضمن المضبوطات»

١ - صورة، حجم كارت، الظهر موضح عليه التاريخ، ٤-٦-١٩٦٦، المكان يتضح من ختم الاستديو «الأمل-رمل الاسكندرية» الدكتور جعفر يقف مرتدياً (مايوه)، في عينه نظرة ضالة، ملامحه كأنه يحلم، تضيء روحه رقة البحر وصفاء الهواء، بعكس هذه العتمة التي لم تفارقه طوال الشهور الافرنجية الأخيرة، شعره أكثر غزارة، غير مصفف، بجواره شاب في العشرينيات، ربما يكبره بعام أو إثنين، قصير، غليظ العنق، في خلفية الصورة مبان بعيدة كلها من طابق واحد، لا يعرف من هم ساكنوها؟

ايضاح

- إذا ما سألت عنه أقول أنني ولدت فوق هذا الرصيف

وعندما فتحت عيني وجدته فوق الرصيف المقابل.

- كنتما لا تفترقان.. لماذا هو بالذات..

« مقتطف من تقارير المراقبة »

يلاحظ أنه في الشهور الأخيرة، باستمرار، يبدو تائهاً، يحلم خلال يقظته أحلاماً تبعث في نفسه مشاعر قاتمة، تراجع مادة الأحلام المسجلة في ٢٧ - ٣ - ١٩٦٦، وحلم الظهيرة في ٣ - ٩ - ١٩٦٦.

- آخر ليلة سهرنا حتى الصباح، طفنا الحسين، دخلنا حماماً شعبياً، خرجنا نتأمل البيوت القديمة المتعبة، قلنا أن كل ساكنيها حزانى مفجوعين، وإلا لماذا ينامون بعيداً عن الشوارع الخالية، هل هان عليهم فراغ الطرقات، أنا قلت سأعيد البهجة إلى الدنيا، لم يعترضنا جندي، أحيانا بائع فول عابر الى مستوقد قريب يسوي فيه الفول، كان صاحبي حزيناً، نادى بائع الفول، قال له تصور يا عمي أنني سأبلغ الثلاثين بعد أيام، تصور ثلاثين مضت، إبتسم البائع ثلاث إبتسامات صغيرة متوالية وتركنا مسرعاً، قرب باب النصر القديم إتخذنا قراراً، ألا نضحك حتى بلوغه الثلاثين، ليلتها نقيم مأتماً، نفقد وعينا، حتى لو أخطأ واحد منا وابتسم، فالتعبير على الشفتين حزن أصفر، مناحة، شهدت علينا حجارة السور، وأرواح الموتى تحت شواهد القبور..

- من إقترح فيكما خطة الحزن الدائم؟؟

- أنا.

- حرمت صاحبك الإبتسامة..

- رحل حزينا..

٢ - نصف تذكرة، تبين دخول السينا، ٣ - ١٠ - ١٩٦٨، دار العرض، راديو، حفلة العاشرة صباحاً، التذكرة مرقمة، عليها علامات الصف ورقم المقعد بقلم غليظ الخط.

٣ - ثلاث تذاكر، صغيرة من الورق المقوى، ٥ ،٢ سم × ٥ سم، القاهرة - حلوان، الدرجة الأولى، التواريخ محفورة مختلفة.

٤ - صورة فتاة من مجلة بالانجليزية، عيناها سؤال غير منطوق، تبوح بسر غامض، كأنها النظرة الأولى إلى أرض جديدة لم يطأها بشر من قبل، أنفها دقيق، عبير وجهها فيه رقة الهواء في جبالنا الزويلية، نبض ليلنا، نداءاته، شفتاها صغيرتان، تنتهيان فجأة بلا إمتداد، تحت الصورة بخط مضطرب، «تشبه ثريا تماماً..»

٥ - قصاصة منتزعة من كتاب، ورق مصقول، حروف سوداء بنط ١٢، عليها الجملة الآتية، «وما أردت إلا الخير، لكن سوء البخت، وميل حظي، حال بيني وبين ما أردت».

٦ - ثلاث صور منتزعة من ثلاثة كتب ومجلات، الصورة الأولى على ظهرها كتابة تدل على أنها الصقت بكتاب مدرسي، من

الكتب التي تدرس في المرحلة الثانوية المتقدمة، الصور لزعيم عاش في الفترة التي عاصرها الجد الثالث للدكتور البيباني، الزعيم يدعى أحمد عرابي «تراجع القوائم، وشخصيات المستضافين». الصورة الثانية تمثله واقفاً ممسكاً بسيف، أما الثالثة فتظهر الوجه، أنه عجوز هنا، أشيب الشعر، في التجاعيد إنكسار وحيرة، هذه الصورة بالذات وجدت معلقة في أطار لا يعلق إلى الحائط، وإنما يسند إلى سطح المكتب، بحيث تظل طول الوقت الذي يقضيه في العمل أمامه.

٧ - أوراق أخرى.

** ثلاثة أوراق كربون، إذا ما تعرضت للضوء ظهرت عليها آثار كتابة، يتم الآن كشف محتوياتها.

** بطاقة إستعارة من مكتبة عامة.

** مجموعة من الخطابات، بعضها خطابات عادية يتم تبادلها عادة بين الأصدقاء، أربع خطابات من فتاة طالبة بكلية الصيدلة واضح أنها تراسله، تعرف بها بعد نشر إسمها في ركن هواة المراسلة بمجلة «المصور» الأسبوعية الملونة، واضح من الخطابات أنهما في سبيل اللقاء، والمؤكد أنهما لم يتقابلا أبداً، تخبره أنها جميلة، متفوقة في دراستها، وأن علاقاتها بأسرتها علاقات عادية، لها أخوة أشقاء لكنهم ليسوا أصدقاءها، تحب الموسيقى الهادئة، وتميل إلى المرح، تقرأ جيداً بالإنجليزية،

على الرغم من دراستها العلمية فهي تعشق الأدب، وأيام إجازتها، وأوقات فراغها تقضيها مع القصص والشعر، تتمنى لو تسافر إلى الخارج، تتزحلق فوق جبال الألب، وتزور بلدة صغيرة في ريف سويسرا، أي بلدة لم تحدد، مهما طال بها العمر تنوي تحقيق هذه الأمنية، إسمها فادية، عمرها تسعة عشرة عاماً.

** دفتر تليفونات، تراجع القائمة المرفقة بتقارير المراقبة المنفصلة والحاوية لأسماء وأرقام جميع من ورد ذكرهم بالدفتر، ولا يستثنى أي شخص ورد إسمه من ناحية الأهمية. خاصة هؤلاء الذين تبدوا أعمالهم، أو إهتماماتهم بعيدة عن عمل الدكتور جعفر، «يراجع أيضاً ملحق س ١٠»

** حوالي مائة وتسعين كتاباً، هي الكتب التي إختارتها مجموعة الطوافين الزويل الذين توجهوا إلى منزله لحظة إسترداده من الطريق، والتي تولت تفتيش منزله، وكتبه، ومكتبه، بحضور أمه، تراجع أيضاً قوائم الكتب المنفصلة والمرفوعة إلى الشيخ هنداو نفسه لابداء الرأي.

ايضاح

- متى تتابع الجديد في عالم الطب، إذا كانت قراءاتك من واقع سجلات المكتبة العامة لا تمت إلى الطب، وأنت بالذات طبيب أعصاب، يعني هناك الجديد باستمرار، هل تقامر بصحة

مرضاك؟؟؟ هل تضحك منهم؟؟ تعاملهم بأساليب قديمة؟؟؟ ما الذي قرأته في هذه الكتب؟؟ ما الفائدة التي عادت عليك؟؟؟ هنا لايجرؤ زويلي على قراءة أو الإستماع إلى نص لم يتله مولانا الشيخ صهيج الملثم منه السلام، إنتظر يا مناف.. إنتظر لا تضربه، سيقول لنا التفسير المناسب لمخالفة عادته الزويلية.. قلت إنتظر.. أنا أسمعك يا دكتور..

المطلب الثاني: به نص التقرير الأخير المعد لتقديمه إلى الشيخ الملثم ويشمل ما قام به الدكتور البيباني منذ الثامنة والربع وقت نزوله الطريق حتى إنتقاله إلى أيدي الزويل مساء اليوم نفسه.

ملاحظة: لم يرد في التقرير كل ما قام به الدكتور البيباني، غير أنه يوضح أبرز ما لفت نظر طواف الزويل ، والتي تؤكدها تقارير المراقبة المتعاقبة منذ ستة أجداد سبقوا الدكتور جعفر، وجميع هذه التقارير تؤكد الآن الأصل الزويلي له، بالذات بعد الدراسات والإستقراءات العميقة التي قام بها بعض رجالنا الذين تخصصوا جيلاً بعد جيل في قضية هذا الطواف الهارب منذ أحوالٌ زويلية عديدة، تراجع الدراسات التي أعدها هؤلاء الرجال عن «طفولة الجد الخامس» «طريقة النطق عند والد الدكتور البيباني وتشابه مخارج الفاظه مع طريقة ومخارج الفاظ الجد الخامس له السادس بالنسبة للدكتور جعفر»، «الميول الشبقية والجنسية عند الجد الثالث للدكتور البيباني» «ايضا «الإحصاءات الخاصة بعدد المشاجرات التي خاضها الدكتور في

طفولته » ومقارنتها بالعدد المماثل في طفولة الجد الخامس والرابع، والعدد المماثل أيضاً لدى الأطفال الزويليين ، و « طريقة تناول الدكتور الطعام وملاحظات طوافونا عليها » ويراعى ان نص التقرير الوارد هنا يتضمن ملاحظات الشيخ هنداو شيخ عشائر الزويل، والاستنتاجات مستقاة من تقارير المراقبة السابقة، ومن خبرة الشيخ هنداو بالقضية.

١ - رفع يده بالتحية، ثلاث مرات.

عندما توسط الميدان، نظر الى الساعة الكبيرة ذات الوجوه الاربعة، في عينيه بدا ضيق، لان كل وجه يعلن توقيتا مختلفاً، لم يشتر الصحيفة. » في احدى ليالي سهره مع صديقه الراحل، اتخذ قرارات اثناء تمددهما في مغطس الحمام، منها، عدم شراء الصحف، لكن بعد رحيل صاحبه شوهد بانتظام يشتري كل يوم صحيفة واحدة من رجل عجوز اسمه مرسي، يجلس على ناصية الشارع، وكان يعطيه قرشين، ويرفض أن يأخذ التعريفة الباقية، لان الجريدة ثمنها خمسة عشر مليماً، يقول خلي يا عم مرسي فيدعو له الرجل شاكراً، غير انه في هذا اليوم بالذات لم يشتر الصحف. »

٢ - « طلع عمارة ضخمة تعلوها لافتات نيون، تعلن عن شركة طيران، تضيء في المساء بلونين، احمر، أزرق، دخل مكتباً فرعيا لشركة أدوية، طلب له صاحبه (ليس صديقه تماماً) قهوة، دار بينهما الحوار الآتي:

- لم أفطر، يجف ريقي في الصباح فلا استطيع المضغ ..

- يجب ان تفطر، من أخطر الامور ان يلف الانسان نهاره على

لحم بطنه..

- شكراً.. اذا أصررت أطلب لي قهوة (رفض القهوة في البداية).

- مضبوط؟؟

- زيادة..

سكت، قضم أظافره (يده اليمنى) سأله صاحبه عن حال أمه، هل مستمرة في تعاطي الانسولين؟؟ قال ستظل تتناوله حتى آخر العمر، ابدى صاحبه شفقة، امتلأ فراغ الصالة بضربات سريعة على الآلة الكاتبة، تجلس اليها فتاة جميلة، لم ينظر اليها، مع ان جزءا عارياً من ساقيها بدا واضحاً من خلال المكتب الصاج الرمادي الذي تجلس اليه، قام.

- الى اين؟؟ طلبت القهوة فعلا..

- أنزل.. احب الشوارع في هذا الوقت..

٣ - «لم يركب المصعد عند نزوله من الدور الثامن، نزل السلم درجة درجة حتى الطابق الرابع، ويلاحظ ان عدد الدرجات التي تصل الطابق بالآخر في هذه العمارة ست عشرة درجة، بعد الدور الرابع قفز درجتين درجتين «هل الزيارة لمجرد تبادل الكلمات الخالية من المعنى التي قيلت؟؟ أم أنها تحوي معاني غامضة نرجو الكشف عنها».

٤ - جلس في مقهى، يرقب الصباح السارح في الطرقات، شوارع ضاحية مصر الجديدة، مذاقها الخاص، كأن الناظر اليها

يرقبها من خلال لوح زجاجي بالغ الرقة، رن جرس التليفون في صالة المقهى الداخلية، اتصل الرنين حبلا غليظاً في الهدوء قطعه الجرسون برفع السماعة، قوس الدكتور حاجبيه، بالضبط لحظة بدء الرنين، نظر الى محطة المترو المواجهة، الى عدد من رواد المقهى، وعددهم في هذا الوقت ثمانية عشر شخصاً معظمهم رجال عجائز احيلوا إلى المعاش من زمن، نظر إلى حوض الزهور المحيط بعمود الخرسانة الذي يحمل مظلة المحطة، الى جندي المرور، الى طفل أشقر يركب دراجة، «هل انتظر مكالمة تليفونية معينة؟؟ خاصة انه دائم التردد على هذا المقهى بالذات، وتم العثور على رقم تليفون المقهى في الدفتر المضبوط معه، وهناك احتمال انه اعطاه لبعض معارفه، مع ملاحظة ان بيته بلا تليفون، المهم، هل انتظر ان يصيح عليه خادم المقهى؟؟ واذا كان ينتظر مكالمة، فمن أي شخص؟؟ هل رجل، او امرأة؟؟ وبما ان قلقه تزايد لانه نظر الى عدة اشياء في وقت واحد تقريباً، اهتزت ساقه بسرعة، اذن فلا بد أن هذه المكالمة التي لم تصل هامة، تعني اموراً لا بد من كشفها».

ايضاح

- طبعاً تدل التذاكر المضبوطة انك ذهبت الى حلوان ثلاث مرات..

- لم اصحب احد.. وحدي ذهبت..

- بالضبط كتجوالك بمفردك ساعات طويلة، كنت تركب القطار الى حلوان البعيدة، تتأمل تماثيل بوذا الوديعة الهادئة في

الحدائق اليابانية، تتابع السمك البريء الملون في البرك الهادئة، الم تتابع السمك الملون في البرك الهادئة، ألم تطأ الحشائش القصيرة الخضراء ؟

- لم أقصد..

- لكنك دست الحشائش، وتمنيت الامساك بالسمك الملون.

- نعم..

- خفق قلبك، اكتسى وجهك تعبير غامض كالغبار فوق سطح مرآه على مرأى من الاطفال الصغار، لم تغازل الفتيات ونحن نعرف انك لست خجولا، هل انت خجول؟؟

- لا اقدر على الحكم.. لا.. ربما..

- يوم بأكمله لا تنطق حرفاً، لا تشرب، لا تأكل، كيف نسكت نهاراً بأكمله، ما الذي كنت تفكر فيه، ولماذا حدائق حلوان، حلوان بالذات، قدم لنا تفسيراً.. آه..

٥ - الثانية عشرة والثلث، تبخر الندى، توهجت الظهيرة، لوح زجاجي ساخن، الى المقعد المجاور للدكتور البيباني، جلس رجل في الاربعين، بعد صمته لمدة سبع وثلاثين دقيقة، فجأة، مال اليه، ممسكاً بنصف ورقة كراسة، بيضاء بلا سطور.

- لو سمحت يا أستاذ.. ممكن تقرأ لي هذه الكلمات؟؟

الناظر العابر الى الدكتور بيباني، لا يدري، ايعرف الرجل أم لا، بسرعة قرأ..

- والحياة ودعت منها نعيمي..

اقترب الرجل بمقعده مسافة مقدارها زوبليان « **المقطع الزوبلي يساوي ٥٥ سم** »

- عالم محير يا استاذ..

صرت عجلات مترو، غنى رجل بلهجة اجنبية في مذياع قريب، بدأ حديث الرجل، وفيما يلي نص ما قيل بالضبط.

- سيادتك متعلم، وتقدر الظروف، اود لو عرفت رأيك في فتوى صغيرة.. رأيك.. وجه الدكتور البيباني جامد، كأنه يفكر في شيء بعيد عما يقوله الرجل « هل تصنع عدم المبالاة؟؟ »

- امرأة احد أصحابي، واحد من أحبابي الكثيرين فأنا أؤمن ان الانسان منا لا يعيش الا بمحبة الآخرين، المهم يا استاذ تصور انها تهجره بعد حياة زوجية استمرت عشر سنوات، انا اعرف أي اتجاه سيذهب اليه تفكيرك ؟؟ ربما تقول إنه لم يكفها حاجتها، أبداً والله يا استاذ، أنفق عليها الكثير، كل ما تطلبه احضره لها، لكن اولاد الحرام التفوا عليها وملأوا عقلها بالكلام الفارغ..

- ربما هناك أسباب أخرى.

- اطلاقاً.. أبداً.. يا أستاذ.. من الناحية الجنسية صاحبي كامل يا استاذ، عينها لم تفرغ يوماً واحداً، الغريب، تصور أنها أكبر منه في السن.. بثلاث سنوات..

الرجل ينتظر رداً، تعليقاً بسيطاً، كلمة لم تأت فاستمر..

- مسكين صاحبي يا استاذ، قابلته يبكي، تصور رجلا يبكي في الاربعين ويبكي كطفل اخذوا لعبته، تصور انت، ما الذي

ابكاه؟؟ اشياء صغيرة جداً، ربما تضحك مني اذا قلتها لك، انه يفتقد رائحتها، عبيرها، مذاقها يملأ البيت، صوتها الذي يأتيه من المطبخ عند وقوفه في الصالة، الطعام الساخن وقت عودته، الشاي والقهوة تقدمها له في المساء، ذهابها الى السينما، الى النزهة، عودتها آخر الليل في طريق خال، او تتصور حرقته يا استاذ، عندما جاء المساء ولم يشرب كوب الشاي، كأن نظام الدنيا أختل، يمكن ان يفعل أي شيء في الدنيا الا اعداد كوب الشاي، استاذ.. هل تعرف الجهد اللازم لعمل كوب من الشاي، ان تغسل الأكواب، تشعل الموقد، تضع الشاي بمقدار معين، السكر ايضاً، تطفىء الموقد، تنتظر حتى يبرد الشاي، تشرب ثم تغسل الأكواب من جديد، حتى لو اعده فلن يشبه مذاق كوبها.. ابداً.. أبداً..

ايضاح

- سمعت التفاصيل كلها وانت لا تعرفه، احتملت، لكن، لماذا انت بالذات؟؟ لم يحك لاي رجل آخر، حدثك انت، هل بينكما معنى خفي، مؤقتاً دعنا من هذه النقطة، ما معنى الجملة المكتوبة في الورقة، وا لحياة ودعت منها نعيمي؟؟ ألم تفكر فيها أبداً، الم تحاول معرفة دلالاتها حتى، اذن متى عرفته، كيف تعرفت اليه، كم مرة التقيتما؟؟ قل لنا كيف انهيت هذا اللقاء.

- قمت فجأة.. قلت شد حيلك.. لم أقل كلمة أخرى.

- حيله هو.. يعني انت تعرف ان كل ما قاله يتعلق به هو وحديثه عن الشاي، الصعوبة الكامنة في اعداد كوب شاي واحد (رجاء توضيح. هل ينتمي رجل المقهى الى قومنا؟؟ اي هل طبق

نظام المراقبة الثالث، وهو تكليف عدة مجموعات زويلية بمراقبة شخص واحد، يشرط ان تجهل كل مجموعة حقيقة الأخرى، وشخصيات افرادها، سيبدد هنا غموضاً، فالحديث ليس وليد الصدفة، انه مثقل بآلاف الاحتمالات التي تفتح آفاقاً أكثر خطورة بخصوص الدكتور البيباني، خاصة أن بعض تقاريرنا في الأعوام الخمسة الماضية، تثبت أن هذا الرجل بالذات، ركب الاتوبيس بجوار الدكتور البيباني ثلاث مرات، صحيح انهما لم يتبادلا الحديث، ولم يبد على كل منهما انه يعرف صاحبه، لكن هذا يحيط الموضوع بعلامات هامة تؤدي الى تعميق خط الايضاحات الجاري قيامنا بها، ولن يحسم الأمر الا توضيح، من هو رجل المقهى..).

٦- همس « يوم الأحد أحسن أيام الأسبوع، أحب يوم الأحد » يراه شابا، ليس عجوزاً مهموم الوجه كالاربعاء الخميس، خال من جهامة الجمعة، الأحد مشرق كأفق بلا الوان، صاف، فيه البحر، ذكرى اصدقاء ابتعدوا، بسيط كالقاء السلام، انطلاق حبيبين فوق طريق خال وسط ريف خصب الخضرة، همس: « لو جاءني الموت يوم أحد، فسأخدعه، انجو منه وأعيش مائة عام ».

٧ - مر بحديقة كثيفة الاشجار، فروعها نحيلة كالممهات، سمع يقول بوضوح، بحيث يمكن للماشي وراءه، او أمامه بمقدار عشرة مقاطع زويلية ان يسمعه «هنا مع ثريا.. دخلنا هنا في الممر المرصوف بالحصا الملون، لا اذكر المقعد تماماً، كان جانب منه متسخاً ببقايا الطيور المستقرة فوقنا، مع هذا لا أذكر أي مقعد »

(تراجع التقارير المقدمة عن عمره المحصور بين عامه الثامن

عشر والتاسع عشر حتى الثامن والعشرين، تراجع الاجزاء المثبت فيها نص ما قيل بينهما). وجهه لحظة نطقه بالأسم، عينا حمامة جبلية ضلت الطريق الى عش افراخها، هوت فالتهمها سنور عناق جبلي وحشي، عيناه لون غروبنا الصخري القاسي، بدا رقيقاً، رقة حادة تؤلم النظر..

٨ - نزل دورة مياه، لم يتقزز من الرائحة الصفراء، نظر الى حارس الدورة، هناك احتمال مؤكد، صريح انه تساءل بينه وبين نفسه، كيف يحتمل الرجل العجوز البقاء في المكان، فك أزرار بنطلونه، جاء الى المكان المجاور شاب يقارب الثلاثين، يرتدي نظارة طبية، اطارها ذهبي، عدساتها ملونة، تخفي اتجاه نظراته، يبقى فمه مفتوحاً، يبدو انه يعاني ضيقاً ما في انفه..

ايضاح

- بقية الأماكن خالية، جاء ليتبول بجواره والعادة، ان أهل الحضر لايفضلون محاورة شخص آخر حلال تبوله، أنت بنفسك استغرقت وقتا اطول من المعتاد الذي تستغرقه في اماكن تبولك الأخرى (الأماكن هي ١ - البيت ٢ - المستشفى ٣ - العيادة ٤ - دور السينما خلال الاستراحات ٥ - دورات المياه في بيوت الاصدقاء (لا يستعملها الا نادراً ثلاث مرات في بيت فؤاد صاحبه طلب في كل مرة اخلاء صالة البيت. ثم وقوف فؤاد حتى يخرج، وكان مصاباً وقتئذ ببوادر اسهال، تراوحت المدة التي قضاها في كل مرة بين خمس دقائق واثنتي عشرة دقيقة ، وعقب كل مرة يسمع في البيت بوضوح، قرقعة وطرطشة الماء عند نزوله من السيفون ثم

صفير الماء في المواسير وبدا الدكتور يومها محرجاً من صوت مياه السيفون) ٦ - دورات المياه في القطارات ، وتراجع التقارير الخاصة الخاصة برحلاته خارج المدينة) دكتور بيباني ، هل تعرف هذا الشاب ..

- اعرفه..

- دكتور البيباني.. نحن نعرف عنك كل شيء ، انت لا تعرف الشاب فعلاً فلماذا قلت أنك تعرفه، وإذا كنت تعرفه أو تتخيل أنك تعرفه ، فما هي الأفكار المتوقع أن تتبادلاها ..

٩ - وهن النهار ادركه في الطريق، شيخوخة الدنيا تتمطى في الشوارع ، نوافذ البيوت مغلقة لا تعلن عما بداخلها ، لم يفكر في الذهاب الى بيته ، كأنه يضيق بالعودة ، يود لو يمشي في خط مستقيم فلا يوقفه عائق ، هكذا احس جده الرابع في بعض أوقاته ، ويلاحظ طبيبعه هذا الاحساس الزويلي الخالص ، كان الجد الثالث يقضى ما تبقى له بالذهاب إلى المسجد أو الطواف بأضرحة الاولياء ، أو زيارة الموتى من أقاربه ، أما الدكتور جعفر فقضى آخر أيامه على مقهى صغير بميدان السيدة زينب ، به طابق علوي ، منه يراقب الميدان والمارة ، يشرب الشاي ، القهوة الزيادة ، يمص قوالب السكر ، وأحياناً يركب اتوبيس من اول الخط الى آخره ثم يرجع..

١٠ - بيوت في طريق هادىء ، اغاني راع زويلي منشدة بشجن ، الاشجار همسات مسائية في ليلنا ، الازهار اهات واهية خرج من احداها رجل عجوز ، يحمل على يديه عمراً صغيراً طرياً ، مشى بخطى سريعة ، وراءه ثلاثة رجال ، اربطة عنقهم فاحمة.. طفلة

صغيرة عيناها ثمرتا برقوق عطنتان، السماء خيمة انهارت فوق الاسفلت، تجاوزوا الدكتور بأربع خطوات، تردد لحظة، مشى وراءهم في عينيه انكسار، كأنه هدهد الطفل، ناغاه طوال عمره الموجز، عالجه، رأى لحظات احتضاره، الروح تنسل منه، عبروا الطريق الوسيع، فيه مركبات وناس وضباب وغروب ونيون، الشمس صبغت كل شيء، تزعق خادمة امام محل كواء، يطل الليل يختلط بارضبة الطريق، علا غناء فيه غبار وصفرة وزمن مختنق اسرع العجوز حامل الطفل، نزت البرقوقتان دمعاً متجدداً، وجه الطفلة عجوز ضامر، الدكتور يمد خطاه، يحاذي العجوز حامل الكفن، انفاسه تتردد بسرعة..

- عنك.. عنك..

توجيه

وبكل دقة زويلية منشودة ومرتجاة، يجب تحديد الاشخاص، خاصة الطفلة، ورصدها من الآن فصاعدا بأكثر من مجموعة زويلية، يطلب ايضاح دقيق يشمل ويغطي جميع الجوانب عن مدى انفعال الدكتور البيباني بالطفل الملفوف بالكفن، أيضاً الرجال الثلاثة، وتستخدم كافة الأساليب الزويلية المعتاد تطبيقها في مثل هذه الحالات للكشف عن حقيقة الشعور الدافع لحمل الطفل الميت، فهذا الشعور المركب يعرفه شيوخ الزويل وبالذات مولانا الشيخ صهيج الملثم، منه السلام.

ايضاح موجز

- ليس مهماً أن تعرف كم مضى عليك هنا.. الزمن مختلف عما تعرفه المهم انك الآن أثقل وزناً، اكثر هدوءاً، ما الذي تشتهيه، ولا نقصد بالسؤال انك ستعدم كالمعتاد في الحضر.

- مهما طلبت. يتحقق..

- بالتأكيد..

- لو.. لو سمحتم لي ان اخرج الى الخلاء وأرى الافق عند البحر، قلتم ان البحر قريب.

- الافق. وعند البحر بالذات.. لماذا ترغب في رؤية البحر.. الافق بالذات.. لا تهز رأسك واجب على سؤالنا. لم يوجه سؤال في تاريخ الزويلي ولم يرد، الافق والبحر.

- لا القى عندي اجابة جاهزة.. لكن لو خرجت اليه سألقي صاحبي الذي نسيت ملامحه اسمع صوت أمي التي لا أدري ان كانت تعيش أو رحلت، أرى ثريا، عطر الليل، ضجيج شوارعنا، سماء بلا نهاية، لا أحجار شاطىء، لا أرض تصد العين والنظر.. لو دقيقة. لحظة..

ملحق - س - ا

(تراجع انساب واحفاد جميع الطوافين الزويل الهاربين عبر وبقدر الامكان، مطلوب تسجيل انطباعات، واحاسيس هؤلاء الاشخاص الثلاثة، وتصرفاتهم، وملاحظة الشاذ منها خلال الفترة

التالية لاختفاء الدكتور البيباني.

١ - بهاء الحق علوان مهندس صوت باحدى شركات تسجيل الأسطوانات ت: ١٨٧٠٤٩

٢ - اكثم البيروني لم يجد وظيفته ت: ٩٦٢٣٤

٣ - أمان الله التهامي صاحب محلات تحف ونجف ت: ٣٤٦٧٨٩

(تراجع انساب وأحفاد جميع الطوافين الزويل الهاربين عبر العصور وراء الجبال)

ملحق - س - ٢

بعد تحليل عميق قام به الشيخ هونداو، واستعانته بثلاثة من شيوخ العشائر الزويلية المتمكنين والعارفين بالأصول والفروع، فانه يرى في الجزء الخاص بحديث الرجل الغريب عن اعداد الشاي عدة علامات تستوقف العابر، وتلفت الساهي، وعلى سبيل المثال فالرجل لم يقل عمل كوب الشاي، انما قرن الفعل بكلمة اعداد، وفي المجال ذاته استخدم تعبيراً آخراً، الجهد اللازم، السكر بمقدار معين، وجميع التعبيرات تحتمل اسقاطات اكثر من ظاهرها الحقيقي، ثم تدرج الى ذكر تفاصيل دقيقة لا يمكن للمنزه عن الغرض ان يوردها في حديثه، من هنا يصبح غسل الأكواب مرادفاً لمعنى أهم وأخطر خاصة اذا اتبع هذا اشعال الموقد، ومقدار معين من السكر يوضع في الكوب، ويحتمل احتواء هذه التعبيرات الخافية على تهديد غامض لطوافي الزويل عبر عالم

الحضر المسكون.

توجيه زويلي

« بالاشارة الى الفقرة الأخيرة (١٠) المطلب الثاني، نوجه توجيهاً شديداً، بوضع كافة المشتركين في جنازة الطفلة تحت رصد حديقة المدرسة او الحديقة العامة، بالنسبة للطفلة الصغيرة التي لم تكف عن البكاء ».

(٣)

الزويل

الحرايبة

تقديم

« .. لا يعرف بالضبط، متى بدأ « الحرايبة » في الظهور، لا يوجد نص مكتوب، او شفاهي متوارث يحدد هذا، وتحاول بعض التخمينات ادراك الحقيقة، وطبعا هذا غير موثوق به، تقول الظنون ان الحرايبة بدأوا عقب صعود الاله زويل الكبير الى الغمام، حاولوا الهام القوم صبرا جميلا، بتفسير الاسباب والعلل، الخافية والظاهرة، ومنذ هذه اللحظات القديمة، والحرايبة باقون، يفسرون ويؤولون، يناقشون ويقنعون، يتقصون، يبحثون، يصدقون، يكذبون، وهنا يجب ملاحظة ان لفظ « الحرايبة »، يقابل بالتقريب في لغتنا العربية « المبررون »، لكن لا تعطي هذه الكلمة، الدلالة الحقيقية لعمل « الحرايبة »، فطبقا للغتنا، يعتبر

لفظ « مبررون » جمعا للفظ مفرد هو. مبرر، والاصل « برّ » و « البر » بالفتح خلاف البحر، والبرية نسبة اليه هي الصحراء، وبر الرجل يبر براً، وبار ايضا اي صادق او تقي، خلاف الفاجر، وجمع الاول « أبرار ». وجمع الثاني « بررة » مثلا كافر وكفرة، ومنه قوله الى المؤذن، صدقت وبررت، اي صدقت في دعواك الى الطاعات، وصرت بارا دعاء له بذلك، والاصل برّ عملك، وبررت والدي أبره براً، وبرور احسنت الطاعة اليه، ورفقت به، وتحريت محابه، وتوقبت مكارهه، وهكذا يحرم القاموس حول معنى اللفظ فلا يدركه، ولكن اقرب المعاني الى اللفظ الزويلي « التبريء »، فعندما يتصدى المبرر الزويلي للبحث والفحص، قاصدا تأويل حدث، مسقطا عنه صفات، كاشفا لعلل لا يراها الا هو، فانه يبرىء الشيء ليقنع به قومه، بوعد هذا، يبقى لفظ « الحرايبة » مبهما غامضاً، فكلمة « تبرىء » تعني وجود جرم أو عيب، لكن (الحرايبة) لا يتصدون للخبيث من الامور وحدها، ابداً، بل منهم من يتبنى رأياً خطيراً، - كما سنرى - ويدافع عنه، ان العالمين بدقائق اللغة الزويلية - وهم قلة - لا يمكنهم تحديد المعنى بتقريبه من كلمة عربية، خاصة ان اللغة المنطوقة تخالف المدونة، لهذا حاولنا كتابة صوت اللفظ، اللفظ تقريبا، « حرياب »، هكذا ينطق، و« حرياب » مفرد « حرايبة ».

وهذا كله غير دال..

* * *

وحدث منذ مئات السنين، في حقبة زويلية توازي العام الثالث

بعد السبعمائة « بالتقويم الهجري » عند المسلمين، ان سرى هسيس، بعد عودة بعض اشداء الزويل الطوافين، اظهروا أمراً لم يعرف من قبل، فقد تهامسوا بأسئلة، اثارها ما يردده شيوخ الزويل المعمرين، حول طواف اعظم قام به الشيخ الحدربي بن الملثم - منه السلام - اول عمره، لف الدنيا، قيل انه طاف ببقاع لم ترها عين زويلية من قبل، لم يتنفس هواءها زويلي ابدا، بلاد يظللها الاله الكبير زويل، قام الشيخ الحدربي بزرع زويل مخلصين في هذه الاصقاع والبلاد، اما المرحلة ذاتها فاستغرقت خمسة وعشرين عاما، ولفظ الشبان ما دار في اذهانهم همسا رفيقا، استفسارا وجلا.

هل استغرقت الرحلة المدة حقا؟.

اين المستزرعون الزويل، ماذا يفعلون الآن ؟

وقابل الشيخ الحدربي الملثم - منه السلام - الامر الجديد بعبر، بحكمة زويلية مستمدة من جلد أجيال زويلية عديدة على لقاء الحبيب. ساكن الغمام.

« ذكر ما قاله الشيخ الحدربي الملثم - منه السلام »

اجال فيهم عينين لم تواجها بنظرات عفية قط، يزيد حدتها لثام شاهق البياض، كأنه روعة الحقيقة، يحفه عطر القداسة رهبة، غموض الانتظار، الان.. يدنو النهار من نهايته، يبدأ الاله زويل

الكبير يرقب مايجري في الدنيا ، يسمع الآهة ، رجفة الشكوى ، حزفة التمني ، الام الفراق ، دبيب النمل في الجحور ، رفرفة ريش العصافير ، زحف الحيات في أوكارها ، انجذاب الموجة إلى الموجة ، تزحزح المحارة عن موضعها في قاع المحيط ، ملامسة ذرة رمال لذرة اخرى ، قوافل السمك إذ تغير اتجاهها ، يغمض الاله عينيه فيجيء ظلام قاتم ، يفْتتحهما فيلد نهارا طفلا رقيق الزرقة .

الآن..

عند حد السماء الشرقي، تكسو الجبال ظلال مجهولة المنبع، صوت الشيخ عمقه سنون الالفاظ مثقلة بمعان ، اجيال عديدة تغني وتعني حتى تصل إلى دلالاتها ، الشيخ الحدربي الملثم ــــ منه السلام ــــ يعرف مايدور بين قومه ، المقيمين معه هنا في بؤرة **الموطن الزويلي، او المنتشرين في العالم الوسيع، لم تدركه دهشة، فخلال الانتظار الطويل الذي سلتهم اجيالا زويلية صابرة، حتى يرجع الاله زويل الكبير، لا بد أن تبدو ظواهر جديدة، انه يقبلُ ما طرحوه مع ان التساؤل مرفوض، وحتى الاستفسار وابداء الشك امر يجهله الزويل، ولانه لا يشك في صفاء نيتهم الزويلية، وحتى لا تبقى التساؤلات خيرة تفرخ ما تفرخ مع قدوم الازمان، فلا ضرر ولا مانع من الاستاع والاصغاء، مها صغر الشك، وضعف التساؤل...**

هم، يبدون شكا في الرحلة المقدسة، في حدوث الطواف الاعظم ذاته، الطواف بكل ما حواه من تفاصيل، نصوصه مدرجة

الآن في المتون الازلية . لن يطلع عليها إلا زويل الكبير ذاته بعد رجوعه المأمول ، وبعد مشاورات عديدة أجراها مع العقول الزويلية المجربة المعمرة ، رأى ان يقوم احد الزويل الاشداء ، عمره يماثل عمر الشيخ الحدربي الملثم - منه السلام - يوم شروعه في الطواف برحلة مماثلة تماما ، حطوات الرحلة ، ما سيلقاه الطواف الزويلي من زويل مستزرعين ، ما سيرسله من رسائل ، كل هذا سوف يطمس الشكل ، ويعيد اليقين الزويلي الراسخ الى النفوس ، لكن من سيقوم بالطواف الاعظم !! من ؟!

عند هذا الحد انسل اللون الاحمر من الغمام ، فاستحال رماديا كالدخان ، لملمت الشمس جراحها الابدية ، ناء الصمت ، الالوان تتبدل بسرعة ، الجبال تفح رهبة ، أي لحظة قد تشهد عودة الاله الكبير. بلا علامات ، لكن يتعلق استفسار من سيقوم بالطواف الاعظم ؟

سيقص شعره ، سيتخلى عن أحلى عاداته الزويلية ، سيلملم الاول والآخر من عمره ، من ذكرياته المودعة ، بؤرة الموطن الزويلي ، زعقة السجود امام الغمام ، سينتشر في الارض زمنا قدره ثلاثة احوال (تقاس الاعمار الزويلية بالحول ، والحول الواحد يوازي تقريبا ثمانية أعوام ميلادية). فارق وحيد بين طواف الشيخ الحدربي وهذا الرحيل ، الطواف الاول كان مقدسا خفيا ، الاغراض منه باطنة ، لا يعرفها زويلي ، اما طواف هذه الرحلة فستعرف الدنيا كلها أخباره ، ليس في المتون الازلية ، لن يعرف باسمه الزويلي ، ولا بصفته

الزويلية، يوما سيتضح هذا، وهذا أمر يعرفه الزويل المخلصون، اصحاب الاصول والفروع، كثير من الاعمال قاموا بها، لكن الدنيا تنسبها الى اسماء أخرى، وشخصيات غير زويلية في الظاهر، وهذا أمر شاق لا يتقبله الازويلي المنبت، من هو .. من ؟!

ثلاث خطوات قصيرة يتقدمها « درياد »، ينبطح فوق الرمال، صمت، لا حرف يلفظ، لا نسمة ترف، يبدو الليل لغزا، الصمت جبلا، يعود الحس النوراني متمهلا.

اذن، سيخرج ابنه درياد، سينأى عن أيامه الزويلية، سيمضي إلى مدينة لم يسمع عنها أبدا، منها بدأ طوافه المقدس، سيمضي اليها درياد مبتعداً، كالحمائم اذ تبعد عن أوكارها، والرائحة الحلوة تتطاير من قلب الزهرة، الى طنجة، صفاته الزويلية مستورة، وكما أوحى الغمام، يمنح أسماً يذكر به الى أبد غير منظور، حتى عودة مخلصنا وملاذنا، يبدل درياد أسمه الى، أبو محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي، وتعرفه الدنيا بلقب، ابن بطوطة، لقب فيه ملامح زويلية مباركة، (وهنا سجد الزويل اجمعون).

انبثقت زعقة، محمود رمال لولبي ساعة ظهيرة عامدة، قام أحد الشبان المتسائلين، انطرح بسرعة مادا ذراعيه باسطاً اصابعه، قبل الرمل والحصى.

سر نفسي وجوهر دمعي، وأول وآخر فرحي، أسحب نفسي، لست مستفسرا.

صمت المولى يعني الرضى، تسحب مرتجفاً فوق الرمال، درياد بلا حس، لا يدري انسان ما يجول داخله.

(لا تعرف تفاصيل كثيرة عن درياد، خلال حياته في بؤرة الموطن الزويلي، وكل ما وصلنا عنه مستمد من رحلته العظيمة المتداولة بيننا حتى الآن) عموماً اتسم درياد بهمة زويلية عالية، صلبة كالصوان، منذ صباه بدت مواهبه الحريابية العظيمة، تجلت في عديد من المواقف والصور، مثلا انتظامه في اداء الفروض الزويليه، قدرته الفائقة على صياغة الحوادث واعادة روايتها بهيئة مشوقة، وقرب انتهاء الحول الاول من عمره، رصد شيخ العشيرة ظاهرة حريابية نقية في أحاديثه، اذ قص «درياد» لبعض فتيان عشيرته حكاية معينة، في نفس الليلة انتقل الى صحبة أخرى، روى نفس الحدث، لكن في هيئة مغايرة تماما، بينما خرج الفتيان بدلائل مختلفة، رفع الامر الى الشيخ الملثم، وادرج درياد في عداد من سيصبحون يوما حرابية عظاما، يؤول الظواهر، يخفف البلايا، يرى امورا لا يقدر على استبصارها غيره، ولاحظ فيما بعد تميز هذا الحرياب بظاهرة متفردة جدا، إذا ماوجه اليه سؤال، يرد ردا مختصرا، اجابة موجزة لكنها تحمل اكثر من معنى، ظاهرها حسم، باطنها لين، بل فيه أكثر من تأويل، وهذا صعب، ايضاً ما من زويلي قابله عن قرب، مرة أو مرات إلا تركه متيقنا أن درياد صاحبه وخله الوفي، وكثيرون من الشباب الزويل يعتبرونه المأوى الامين لصور أحلامهم، وأفكارهم، وهذه ظاهرة شديدة الاهمية حرص الحرابية العظام فيما تلا ذلك من دهور على الاقتداء بها، أن

تصبح الحرباب موضع ثقة ، ملاذاً أميناً ، حتى إذا ما قال صدق . واذا ما سأل اجيب ، ولا بد هنا من اشارة مؤكدة ، وهي اختفاء صفة الحرابية عن الفرد الزويلي المعد لاداء هذه المهمة المقدسة ،).

يبرق اللثام الابيض ، سيفا مشرعاً في مواجهة العتمة .

كما سيحرم درياد ، لا بد للمتسائلين ان يقدموا على تضحية ضئيلة ، سيتركهم سواد الليل ليقروا أمرهم ، طوال مدة الطواف لن يقربوا امرأة زويلية ، لن يجتمع واحد منهم بالآخر ، لن يتبادلوا الحديث مع أي زويلي .

الآن ، لا يرون وجه الشيخ الملثم ، نظراته ترعش ، ترجف ، رائحة الرمال غامضة ، طوال النهار تستكين لشمس قاسية ربما الحشائش الجافة الصغيرة .

– في اول نهار جديد قادم ، سيخرج ابني درياد الى طوافه ، حتى لو أبقى واحد منكم بمفرده على تساؤلاته ..

* * *

ثلاثة ، زراب ، فازر ، زنيد

تتقارب أعمارهم ، كل منهم ينتمي الى عشيرة زويلية ، فازر يتقدمهم ، جلده منقوع في صبغة صفراء ، ولانه اكبرهم عمراً ، جثا امام الشيخ الحدربي الملثم ـــمنه السلامـــ في نفس موضع جلوسه أول

الليـل، أنهم يلتمسون رحمتـه، يلوذون بالسنـاء الأعظم، لكن التساؤلات تحرق أغوار الحشا، تلهب المرقد، لو طال الامر لخافوا العاقبة، انهم يقبلون ما أمر به، لن يقرب واحد منهم امرأة ابدا، لن يلفظ لسانه بكلمة، حتى تكتمل رحلة درياد

« توجيه زويلي »

« بعد مجيء القمر، بعد اكتماله مرات ثلاث، بعد ان يتقن درياد اللسان العربي، بعد معاملته منذ الان على انه عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي، وحتى يعتاد، سيخرج ليعيد وقائع الطواف المقدس... »

الرسالة الاولى

« الحضرة العليا »

اصل الاصول، المنظر الاكبر، المثوى والملاذ، المأوى اللين، الشفاعـة المرتجاة، باعث الفرح ومبعد الاسى الرقراق، الظل النوراني، من يدني النائي، منه السلام..

يوم خميس بدأ خروجي من طنجة، خميس يوافق الثاني من شهر رجب الفرد، عام خمسة وعشرين وسبعمائة، اما عمري فيوافق اثنتين وعشرين سنة، اسلمت نفسي وعمري، اولى واخرى الى

الطواف ، الان اجتاز صحراء وسيعة يظللها المختفي الظاهر ساكن الغمام.

امام زماني ،

أذوب ، أفنى وجدا لرؤية صمرة رمالنا ، التى تحظى يوميا بلمس خطواتكم ، ومنكم السلام..

الرسالة الثانية

اول النهار ، سمع زراب في معزله.. [بعد خروج درياد لم ير احد الثلاثة صاحبه ، كل منهم يقيم في منأى عن عشيرته ، وعندما تصل الرسالة بواسطة الطوافين الزويل ، يبدأ شيخ العشيرة في قراءتها ، يرددها مقطعا مقطعا ، الكل متراصون امامه ، يبقى المتسائل بعيدا ، ينام بمفرده ، يأكل في مكان نائي ، يرقب الحياة الزويلية ، لا يحق له الاقتراب ، وعند رحيل العشيرة من موضع الى آخر ، يبتعد عن المركب ، يبدو للناظر من بعد ، نقطة منفصلة ، مطلقة غير مقيدة ، لكنها لاتلامس الحروف ابدا ، ولا يعتبر هذا عقابا إنما تعاليم زويلية خالصة .. ، صوت ابن بطوطة يأتي من بعيد ، رآه يعبر الاقاليم الزويلية المفتقدة ، يقطع المدن ، تلمسان ، سوسة ، صفاقس وقابس ، يتزوج في « فاس » ، في صفاقس يتزوج من ثانية ، امرأتان زويليتان من أصل زويلي بثه الشيخ الملثم في الطواف الاول ، زواج لا يقيم اسرة ، لا ينشيء ابناء ، لا يعد بأحفاد ، انما يؤكد حقائق زويلية ، تذوب الأرض الصلبة يتوه فيها. يرى الغمام متنوعاً مهيباً

يظلل الدنيا ، قمم الجبال لا تطاوله ، يجيء الليل صخراً مصقولاً ، يستعيد زراب تفاصيل الرسالة ، يرى مدنا ومواكب واطفالاً صغاراً ، يرى ابن بطوطة في مسجد (مكان العبادة عند المسلمين). يلتقي بالشيخ برهان الدين الاعرج ، ابن بطوطة يرى في وجهه صدقا زويليا ، برهان الدين يفارق القطر الى آخر ، في كل بلدة يتخذ اسماً ، يقول ابن بطوطة أن ملامحه تتغير وهذا من مناقب الشيخ الحدربي منه السلام على قومه ، قبل كتفه ، أظهر وداً زويليا دافقاً ، دمعت عينا برهان الدين لم يتصور أبداً أنه سيلقى زويليا شاباً . ادركته سعادة آخر العمر ، عبير الرمال الصفراء في بؤرة الموطن الزويلي ملأ أنفه ، سرى في دمه ، زحم صدره ، صحب ابن بطوطة الى اسواق دمنهور (المقيم فيها وقتئذ)، كساه، اكلا السمك المملح، شربا الخروب ومنقوع التمر هندي ، تمنى لو قضى الوقت كله مع الشيخ برهان الدين ، لكن عبثا يحاول ، ربما دخل كل يوم مدينة ، لكنه لن يصل الى استقرار أبداً ، مواصلة الرحيل فرض واجب ، ما من شيء يدوم أبداً الا الصبر الزويلي في انتظار رجوع ساكن الغمام ، اوصاه الشيخ بزيارة اشقائه ، فريد الدين في الصين ، عجيب الدين في الهند ، كلاهما طواف زويلي ، تباكيا ، تواعدا ، ابن بطوطة يواصل رحيله ، يواجه الليل الغامض في البلاد الغريبة ، يرقب مجيء الفجر الرمادي ، يفرى كبده حنين الى بداية النهار في مضارب العشيرة الغمام يخفي انفاسا مباركة تتردد في الاعالي ، وانغاما زويلية صافية ، وتلاحين مبكية ، وأنواراً رهيفة سنية تبرق في الغمام النائي نافذة واهنة ، مراكب ترسو في خلجان قصي ، مجاهدون زويليون يرحلون من واد الى واد ، يبشرون بميعاد البعث الزويلي ، عندما يجيء

العدل عذباً حلواً رائقاً منشداً برقة ، زراب برهقه أسى ، عمره الحلو يمضي ، شمس تغوص في المتاهات الغريبة تاركة برودة تفح في القلوب ، القلوب ، لا يعرف أحوال صاحبه ، لا وسبله لديه يدون بها الزمن المنقضي ،الرمال لا تحفظ أثراً ، طال اشتياقه الى الحديث ، في أول الليل يفوس حسمه ، كأنه الوليد لحظة انزلاقه من الرحم ، يهمس بخافت المنطوق ، لم يخالف نصا زوبلياً . لم يأمره أحد بالإمتناع عن مخاطبة الهواء ، بالنهار يجمع حفنة رمال ، يحاول فصل الذرات عن البعض ، استجلاء السر المكنون في الصلابة ، في العصر يصغي إلى الحياة الزويلية ، من حين الى حين تهب روائح طعام وصيحات أطفال ، يهبط قلبه مقدار قبضة اليد ، ابن بطوطة يتساءل من بعد سحيق عن وجوه الصغار عن لمعة العيون ، يود لو يلقى زويليا واحداً يبادله الشجن ، يصارحه بالامل المرتجى ، يحكي رؤيا المنام ، يلامس بجبهته الارض تقربا من ساكن الغمام ، بعد فراغ ابن بطوطة من رحيله ، زراب لا يدري ما سوف يحل به ، المؤكد أن عذراء زويلية لن تقبله ، ما يضنيه الآن انتظار الرسائل ، احياناً بثور الخاطر كأعمدة الرمال المتصاعدة الى الفراغ ،لحظات قسوة الظهيرة ، غباء أخرف ، كم حول في عمره حتى يضيع من حياته قدراً كهذا ، أحياناً تفاجئه لحظة ضئيلة كرعشة نجم بعيد ، يود لو يرى آفاقا نائية ، جبالاً شاهقة ، لو يتقن السنة أجنبية ، ينفذ الى أسرار الناس ، لو .. لو .. لو انه لم يطرح الأسئلة ، لو ان جنين التساؤلات لم يتحرك في رحم فؤاده ، لصار الآن طوافا عتيداً ، يعمل بعديد من المهن والصنائع ، ينظر فيما هو كائن ، يستبصر الآتي ، لماذا لم يقم هو بالطواف ذاته ،

لماذا لم نقم به زبيد ، أو فارر لماذا ، دائماً ينتهي ، بدأ بوضع التساؤل تلو التساؤل ، فينأى ابن بطوطة ، ويبقى هو..

فازر

رحمتك يا ساكن الغمام ، طرح التساؤلات عبث ، خطأ فادح ، كيف يتداركه !! قوى خفية أحكمت الحصار حوله ، كائن أحدقت به . حتى تساءل وقال ما لا يجب قوله ، حام حول المحرمات الزويلية والنتيجة ينوء بها شاب زويلي مخلص ينحر عمره في الغربة ، درياد يبدى في كل رسالة حنيناً محرقاً الى الموطن الزويلي ، لكنه لم يتوقف أبدا ، في بلاط صاحب مصر يلقى الآقوش البريدي . اسرع من ينقل الرسائل يقطع المسافة من مصر الى حلب في خمسة أيام ، وهي مسافة شهر ، وهذا من مناقب الشيخ الحدربي الملثم منه السلام ، الآقوش زويلي مستزرع ، يصحبه الى قلعة السلطان قلاوون ذاته ، يمضي معه مسافة فى الصحراء ، فى الجبال يسمع همهمات زويلية ، تتفتح له أرصاد خفية . يرى أنواراً تضيع الدليل وتذهل الخليل ، يفصح له البحر عن مكنون أعماقه ، يدخل شيراز ، اصفهان ، يسجد في جامع الابنوس ، يلقاه شاب غريب الهيئة ، يعطيه مصحفاً ، أخذته رهبة ، اختفى ، في اللحظة ذاتها جاءه طواف زويلي يعرف فارس كلها كما يعرف باطن يده ، أخبره عن الشباب ، هذا هو الشولي ، (الشولي من غلاة الزويل المستزرعين ، لايظهر إلا مرة واحدة لكل طواف عظيم) . فازر تقلقه كلمات ابن بطوطة ، بعد الرسالة الرابعة تنفس الغربة مع الطواف الاعظم ، أرسل دمعا ، قام واقفا ، السماء خالية فسحة ، رفع ذراعيه ، زعق طالباً الرحمة من ساكن الغمام ، هنا توجه

اليه شيخ العشيرة، طلب منه الكف عن هذه الافعال، رأى فازر في مجيء الرجل اليه فرصة لن تتكرر، لم تسنح له منذ بداية عزلته، رقق لهجته، خفض صوه حتى صار همساً حانياً، ابداً، انه يقصد التماس الرحمة من ساكن الغمام، ادرك خطأه، فداحة جرمه، رفع شيخ العشيرة يداً مبسوطة الأصابع، جاء ليحذره، لن يسمعه. اذا أراد طلب الرحمة من ساكن الغمام، هناك طرق زويلية يعرفها الوليد الزويلي لحظة ازلاقه الى جوف الحياة، ما يأتيه فازر لن يستثير غير السخرية في نفوس الصغار، زعق فازر، يتزايد همه، ثقل يؤلم روحه، من دفعه الى طرح التساؤلات، الى التمسك بما فاه به، أهو زراب، أهو زنيد، لا بد ان كلا منهما أهتدى الى طريقة يسوي بها أموره، في عصر اليوم الذي بدأ فيه شيخ العشيرة يتلو الرسالة السادسة، قام فازر، صرخ مقاطعاً تلاوة شيخ العشيرة..

اني نادم..

انتظر، كأن الامر كله سينتهي بعد لحظات، حتماً لا بد أن ينتهي، يعود الى تبادل الكلمات مع أصحابه، الى اغفاءة الظهيرة، تناول طعامه مع جمع من عشيرته، الى السجود في مواجهة الغمام.

اني نادم .. افعلوا بي ماتشاءون .

صمت كثيف باق في أذنيه، لم يصغ واحد، لم يهتز جفن، لم ترهف اذن، لحظة لو تجسدت لبدت أشد ضآلة من ثقب مخراز، لحظة لا تعرف الا هنا في بؤرة الموطن الزويلي، يتحد الصخر والاعشاب والسماء والنجوم مع الخرس الانساني، حتى وشيش البحر يموت، روحه تقطر على مهل في هوة لا يدرك آخرها، لو يجري،

ينفذ من اللحظة، يلقي نفسه أمام المولى منه السلام، ويصل اليه صوت شيخ العشيرة، الجمع شاخص، يرون بعقولهم الابن الزويلي البار في الغربة.

«بارض نيسابور اشتريت غلاماً فرآه معي طواف من قومي، خبر المدينة وعرف ما بها، قال لي هذا غلام لا يصلح لك، فبعه، قلت له نعم، بعت الغلام في غد ذلك اليوم، اشتراه بعض التجار، فلما حللت بمدينة يسطام كتب الى بعض أصحابي من نيسابور، وذكروا أن الغلام قتل بعض أولاد الترك، وهذه كرامة لطواف زويلي أمثل قاسمته الخبز والرقاد..». [قام فريق من اساتذة التاريخ والجغرافيا البشرية بجامعة الاسكندرية بمقارنة بالغة الدقة بين نصوص رسائل درياد الكاملة والموجودة لدي، والتي وصلت الينا شفاهة في الحكايات المتوارثة عن الزويل بين قبائل العبابدة، وبين نصوص رحلة ابن بطوطة، المعروفة تماماً لدى جميع طلاب العلم، مختلفة طبعاتها القديمة والحديثة. واثبتت المقارنة اتفاق الاحداث في كل من الرسائل والرحلة المعروفة المدونة فيما عدا فارقاً بسيطاً، وهو مخاطبة ابن بطوطة باسمه الأصلي، وتأريخه أيام الوصول والسنين بالتقويم الزويلي، وابداءه الشكوى والضيق من رحيله المستمر، وهذا بخلاف الرحلة المعلنة، حيث يبدي فيها أكثر من مرة حبه للترحال والسفر].

* * *

زنيد

تتعاقب عليه أقمار تبدأ ناقصة، تكتمل ثم تضيع، تذهمه

الخواطر اذ يوغل الليل، تأتيه الوحدة صخراً وبحراً لا قرار له، نفياً أبدياً، يمضي العمر، لذة الخلو إلى زويلية لن يعرفها أبدا. عادة الحديث ينساها، ينتظر رجوع درياد، لا بد ان يراه، يسأله، يعرف ما جرى له، كيف اعتاد الغربة، بأي مشاعر قابل تبدل الاجناس عليه، تغير البلدان، عدم استقراره في موضع واحد، في كل رسالة يبدي حزناً عفياً، يتساءل عن غروب الشمس في الوطن الزويلي، عن لون السماء عند بداية النهار، منذ نصف حول (حوالي سنة ونصف ميلادية) صعد الشيخ الحدربي الملثم منه السلام الى الغمام، رحل تاركاً جسده في الرمال الناعمة، ارسلت العشيرة دمعاً سخياً مدة ثلاثة ايام، وأبدت ابتهاجاً فياضاً لثلاث أخر، جاء الشيخ زويدان تجسيداً ظاهراً لزويل الكبير، اسدل اللثام،.. (عندما يموت الزويلي لا يفنى الى الابد، انما ينتقل من حال الى حال، يصبح جندياً زويلياً مباركاً وهؤلاء سيرجعون مع الاله الكبير عند نزوله المنتظر). ولا يغيب الجند المقدس عن انظار احبابهم، انما يظهرون في الليل، يرقبون الكون، ويرون على هيئة النجوم، وفي الأعالي لا ينقسمون الى أخيار وأشرار، كلهم جند الاله الكبير، ولا يعتبرون في العالم الآخر، ان العالم الآخر الزويلي، يبدأ بعد عودة ساكن الغمام، مع جنده، فيبدأ زمن السعادة، وهذا لا حد له)... يرى زنيد السماء حقلا مزروعاً بزويل كثيرين، تفاجئه خاطرة شك، أحقاً، يطوف درياد بالدنيا !! من اين تجيء الرسائل ؟ من يدريه أن الامور كلها لم ترتب من قبل ؟! ، من يؤكد له أن ابن بطوطة في ارض كلها «اشجار الخرجيل، والفوفل، والقرنفل، والعود الهندي، والشكي البركي

والجموں ، وقصب الكافور ، افاويه الطبب ، جوز الرجيل »، كلها نباتات مجهولة هنا ، لكنها ستعرف يوماً للزويل أجمعين، آه.. ربما يقيم « درياد » فوق هذه الجبال، ينزل في الليل، يرى زنيد وجهاً صلباً لا يكشف معنى، لا ترتعش حلجاته، في انتظار عودة درياد، ها.. عودته هو، لا يعبأ زنبد، ولو، تكتمل أقمار وتتآكل، تطول المدة وتقصر، في لحظة بعينها يدرك الرد.

.تتابع الرسائل

يود زراب لو سمح بالمضي الى الشيخ الملثم، يطلب رجاءً واحداً، لن يكذب، زراب لن يقول ان التساؤلات ذابت، ابداً، المرارة في اللعاب، العكارة في قاع الجدول، لكنه يرى أيامه تولى، لحظات راحة عسيرة المنال، اغفاءة هنبة لا تواتيه، الاسى متزايد، والزاد مفتقد، القلب لم تحمه الضلوع فأدركه وهن، يود زراب منحه القدرة على استعادة أيامه النائيات، يتجول صامتاً في مضارب العشيرة، رائحة الخبيز، مذاق اللبن، يسمع نداءات الحريم، يرى ايدي الاطفال تتحرك بلا هدف، يذكر بهجة الوجد الذي تبعثه الصلاة امام الغمام، يستعيد رائحة أخشاب القوارب، صوت الاشرعة اذ تنتفخ بالهواء، زحام الاسواق البعيدة، الهمة، الآهة، الرجفة، اختلاجات القلب الزويلي الحزين، الآن لا يصغي الى رسائل ابن بطوطة، كل ما تنبه اليه منذ حول أو أكثر، حديث شيخ العشيرة عن الدور الخفي المستور الذي قام به الشيخ زويدان الملثم ـــمنه السلامـــ في التريس لرحلة المولى الحدربي منه السلام. جاءت رسائل ابن بطوطة تؤكد هذا، توثقه، اكثر من مرة رأى في

سائر البلدان علامات ، اشارات تعلن ما قام به الشيخ زويدان الملثم ـــمنه السلام ـــ زراب لا يعبأ بهذا ، آه لو يسمحوا له بالذهاب إلى المضارب ، لن يتكلم مع زويلي أو زويلية ، لن يسمع أخباراً أو رسائل ، يتركوه قادراً على الحلم ..

* * *

... في الصين ، سمعت ان بها شيخاً كبيراً ، قد اناف على مائتي عام ، لا يأكل ، لا يشرب ، لا يحدث ولا يباشر النساء مع قوته التامة ، وأنه ساكن في غار يتعبد فيه ، توجهت الى الغار ، رأيته على بابه نحيفاً شديد الحمرة ، عليه أثر العبادة ، ولا لحية له ، فسلمت عليه ، امسك يدي ، وشمها ثم قال للترجمان .. هذا من طرف الدنيا كما نحن من طرفها الآخر واسم مولاه وشيخه وامامه زويدان ...

ولم يستطع شيخ عشيرة فازر اتمام الرسالة ، فازر نتر جسمه الى اعلى ، يدور يضحك في مواجهة جهات الدنيا الاربع ، يلعب حاجبيه ، ينحني الى أمام والى خلف ، يختلط صوته بضحكاته ، لهجة غامضة مبهمة ، الامهات يغطين وجوه اطفالهن ، توقف الشيخ لم ينظر ناحية فازر ، وجهه جامد ، منذ احوال عديدة وفازر يبدد صمت الليل ويقل صفاء الصباح يعلن خطأه ندمه ، يقبل كل ما يحل به ، سيقدم اسماء كثيرة وشابات واطفالا زويليين يطرحون التساؤلات سراً ، لم يلتفت اليه احد ، اما الآن فالامر يختلف ، يهب ثلاثة من اشداء الزويل ، اشارة من شيخ العشيرة ، ينصرف الجمع كله عدا الثلاثة ، يتصبب العرق غزيراً من جسد « فازر » .

* * *

هذه الرسالة بالذات ، لم تصغ اليها عشيرة « زنيد »، بقيت مطوية ، مجهولة المعاني ، بلا تفاصيل، صباح قريب لم يمض عليه قمر واحد، بدا «زنيد» صارم القسمات ، كأنه امتداد خفي للصخر النائي ، لم يرد ، لم يتحرك قط عندما قلبوه ، هاهو ذا الاله زويل الكبير يسترد واحداً من جنده آتي ما لم يأته أحد من قومه، بدت السماء في عيون القوم رمادية جهمة موحشة، لغزاً زويلياً عصياً...

تزاج الساكانابي

لم يغادر بؤرة الزويلي أبدا ، لم يرسل طوافاً حتى إلى وادي مصر القريب، انما عمل منذ بداية حياته في « الساكاناب »، واللفظ يعني تقريب « الاخبار » أو « المعلومات »، وعندما ينتقل الزويل من منطقة الى أخرى يقوم الشيخ الملثم بتوزيع « الساكانابيون » فوق قمم الجبال، في بطون الوديان، بجوار المدقات الصحراوية، برصدون أي غريب ، وعند مشاهدتهم لأي ظاهرة لافتة يقومون عن طريق نظام خاص من الاشارات شديدة الغموض، تنتقل بسرعة، في لحظات يصل المضمون الى الشيخ الملثم، حيث يقوم الساكاناب الاعظم بتحليله وهنا يتخذ الشيخ الملثم ما يراه مناسباً، وليست هذه المهمة الوحيدة للساكانبيين، اذ يتولون الطوافين العائدين من الغربة الى الموطن الزويلي الجديد ، ايضاً يتسلمون ويقلون الرسائل التي يبعث بها الطوافون الزويل عند اقتراب حملة الرسائل من حدود الموطن. وفي قديم الزمان لم يحتل « الساكاناب » اهمية عظمى، واقتصر على الواقع الداخلي للعشائر الزويلية، حيث ينقل كل حرف وهمس إلى الشيخ الملثم ، لكن مع التقدم تعاظمت الحاجة اليه، خاصة في الاعوام المائة الاخيرة، بعد تزايد حركة المسافرين عبر الصحراء، وبعد تقارير مفصلة عن وسائل نقل جديدة، توصل اليها اهالي الحضر، تابعوا كل تطور يحدث، وصفوا الطائرة وطبيعة عملها في وقت مبكر جداً ، وفي الفترات المتعاقبة استطاع طوافو الزويل الدخول في تفاصيل هذه الوسائل الجديدة، قادوا

السيارات ، والتراموبات ، عمل عديد منهم كطيارين على خطوط البريد في فترة مبكرة جداً من بدء الطيران التجاري، عبروا المحيطات كربابنة سفن، اتخذ تزاج موقعاً سكانابياً قريباً من مضارب العشائر ، توافر لديه علم بمواقع جند زويل الكبير (النجوم) في السماء ، قيل انه يناجيها بعد ادراكه خفايا رموز مجهولة يخاطبهم بها ، يناجيها وتناجيه، وفي فترة زمنية موازية لعام الف وتسعمائة وسبعة وثلاثين (بالتقويم الميلادي)، ضمه الشيخ الملثم الى معاوني الساكاناب الاعظم، وظل جانب من مهامه غامضاً، في نفس هذه السنة أثار تزاج تساؤلاً غريباً شغل المجتمع الزويلي زمناً مديداً ، ويلاحظ ان طرح التساؤلات في هذه الحقبة أصبح امراً عادياً لا يقابله العقل الزويلي بدهشة ، بخوف ، ولا يقتضي اداء تضحية ما ، وفي جميع الاحوال المعروفة لنا كان رجال الشيخ الملثم يبدأون بطرح التساؤلات...

* * *

عندما كفوا ، تزايد عمق الليل، ترسل الجبال ريحاً لينة كعبير التمر ، تزاج الآن موضع اهتمام ، يشغله أمر عظيم، يقلق مرقده . يغض شهوته قبل اكتمالها ، يطن في دماغه كذبابة صحراوية كبيرة كريهة . « تزاج » عمل ساكانابيا على المدق الجبلي القريب من الماء الاعظم، يهوي التساؤل عليه منذ هذه الفترة كحبات الحجارة المنذرة بانهيار جبلي ، كيف اصبح الماء الاعظم أزرق !! لماذا تبدو الزرقة خفيفة في مواضع ، ثقيلة في أخرى ، لماذا تتوهج كشهوة امرأة عند الظهيرة ، يتنهد البحر كعذراء زويلية لم يقربها زويلي أبدا ، لماذا

يكتئب عند المساء ويحزن ساعة تنأى الشمس وتغوص فيه ، اين تذهب الزرقة اذ يحل الليل، أي قوة خفية تدفع الامواج الى الاصطدام بالشاطىء ، وأي قوة أخرى تجعلها ترتد عنه!!

– أنتم لاهون عني .. ترصون الاحجار فوق الرمال ، تتساءلون عن عن اسباب انتقالنا من مكان الى آخر في الحول الأخير،دلوني ، قولوا رأيكم، أهدوني الى الراحة..

بعد طقوس أول النهار، وقف افراد العشائر يصغون الى الساكاناب، (يلاحظ استعمال لفظ الساكاناب هنا بمعنى الاخبار، يطلق أيضاً على الشخص الذي يقوم بنقلها)، والساكاناب الرئيسي هذا الصباح تساؤل طرح من معاون الساكاناب الاعظم، الشاب الزويلي «تزاج».

ما سبب زرقة البحر!!

ربما يطرح البعض تساؤلات مقابلة، لماذا يقلق «تزاج» لأمر يبدو هيناً لا صعوبة فيه، ما علاقتنا بالماء الاعظم ونحن لا نقربه إلا كل حولين أو ثلاثة مرة ، لكن تزاج يوضح الامر ، زرقة البحر امر الامر، زرقة البحر امر غامض لا بد من اجتلاء سن، في نصوصنا المقدسة ما يشير الى اوصاف معينة تحلى بها كبيرنا وقاضينا وزادنا ومنقذنا المنتظر زويل الكبير، اطلب منكم مساءلة شيوخكم في هذه النصوص، الا يوصف بأنه باهر الصورة، عيناه كالماء الاعظم، هل توجد علاقة بين زرقة البحر والعينين الباقيتين ابداً، أيهما يستمد سره من الآخر.

* * *

توجيه زويلي

« الى سائر الطوافين الزويل في انحاء الدنيا، الناطقين بكافة لغاتها ، المترقبين سيد الغمام ، ليظهروا ويتظاهروا ، مطلوب ايجاد الاجابة على تساؤل طرح في بؤرة الموطن، شغل عقولاً ، ربما جاء الجواب من زويلي مخلص أمين يسكن بلاد الثلوج، أو آخر يأكل طعامه من لحاء الشجر في الغابات القصية. اذكروا ، منذ احوال بعيدة قدم ثلاثة شبان زويل اوفياء اعمارهم بسبب طرحهم لتساؤل بسيط ، وانني زويلي مخلص أفنى عمره ليجيب عليه، اليوم يعاقب كل من لايفكر في الوصول إلى رد ، تساءلوا فيما بينكم ، في صحوكم ، في نومكم ، في هزلكم وجدكم ، اخلطوا التساؤل باحزانكم ، بأفراحكم .

لماذا زرقة الماء العظيم!!

لماذا زرقة الماء العظيم!!

* * *

حوليات طرح التساؤل

تزاج

من يدري ، ربما تكشف المغيب ، ما بعد ذهاب الاعمار ، ما يحويه هذا الازرق العظيم ، الا تبدو السماء زرقاء!!. ربما البحر اصل الزرقة ، ماذا يحويه جوفه الممدود!! نصوص زويلية مقدسة تقول ، انه لحظة نزول جند زويل الكبير من الغمام يخرج جند آخرون من الماء الاعظم ، اذن ، أي عنصر مفتقد يرقد هناك!! أي معنى تبطنه

حركة الاسماك في الماء ، في يوم بعيد ركب قارباً ، نفذ بعينيه الى عمق غير قليل ، البحر هادىء منبسط كيابسة ، يرسل صفاء ، نداء بالاحتواء ، بالضم والتقبيل ، او يتنفسه الانسان ، رآه غامضاً كطفولة بعيدة مفتقدة ، أيقرر ان أياماً حلوة رائقة لم يعشها ، يعرفها جيداً ، هناك في العمق ترقد كعروس نائمة ، رأى أعداداً كبيرة من الاسماك ، الواحدة في حجم راحة اليد ، لونها اصفر كرمال الغروب ، يتخللها خطوط ثلاثة حمراء ، اثنان منها متساويان في الطول ، الاوسط يمتد من الفم المدبب الى الذيل المثلث ، يحف الخطوط الحمراء ظل ابيض شاحب كالحليب ، لا يمكن احصاء العدد ، اتجهت الاسماك الى جهة مطلع الشمس ، فجأة التوى مسيرها ، عادت في الاتجاه المخالف ، لم تثبت طويلاً ، صعدت الى أعلى ، دارت ، تندفع جميعاً فجأة ، لا يدري أين ذهبت!! هل تخفي زرقة البحر العظيم معنى لهذه الحركة!! هل تتخاطب الاسماك بلغات كما يتخاطب الانسان ، زويلياً او غير زويلي ، أيتزاورون ، يتشاركون ، يطوفون ، يمرحون ، أيسود جنس منهم على آخر ، ما مقدار الأعمار وإذ تنقضي فألى أي سماء تمضي وتولي ؟!

* * *

« « شاب يتهم تزاج بالخروج على الطاعة الزويلية » »

الآن ، زرقة البحر هم وضنى ، شاغل لا يفنى ، وحدث ان توجه صهي الى الشيخ الملثم ، تجاوز شيخ العشيرة ، وهذا لا يحدث ا في حالة وقوع أمر جلل.

– ياسر زماننا ، أنا صهبي ، ابن العشيرة الثانية ، من تفقه ابناؤها ى العلوم الزويلية ، أتهم تزاج الساكانابي بالخروج عن طاعة زويل الكبير...

لحظة صمت ، اذن ليستمر..

– وفي حديث له بالعشيرة الاولى ، تعرض لنص اصلي ثابت نوراني ، فسره بما يخدم دعواه. وهذا النص النوراني الزويلي يشير إلى خروج جند زويليين مخلصين من الماء الأعظم ، قال الساكاناب ، ان جند الزويل يخرجون من زرقة البحر.. وهذا جلل...

* * *

« النص الزويلي النوراني »

« .. ويتقلص الظل ، يحن الصخر ، يلين الحجر ، تفقد الموجودات عناصرها ، ترسل الاشجار والنباتات دمعاً ناطقاً ، يترك جند موحدون ، آمنون ، مترابطون ، متفانون ، ويخرج من الماء الاعظم جنداً زويلي الشجن ، زويليو القلب والفؤاد ، الماضي والحاضر ، الأمل والالم ، زويلي الظل والمرقد ، يمضون الى اليابسة ، اسلحتهم لم يعرفها مخلوق ، في البدء ينفضون اعشاب البحر ، يلقون اصدافاً علقت به ، منهم يقطر الماء الاعظم ، القطرة الواحدة دمعة زمنية ، تلخص الحقيقة ، تحكي ما جرى ، تقص الآتي ، تبصر بأمل وشيك الوقوع.. »

* * *

تزاج

« .. عندما فلت بخروج الجند من زرقة البحر، قصدت ذات الماء، اذ كيف يوجد ماء بدون زرقة، وكيف تنأى الزرقة عن الماء ؟!

* * *

وحدث ان شاباً من العشيرة الثالثة، قضى ليلة في مضارب العشيرة الأولى، أن أثار ملاحظة غريبة :

– زرقة البحر ليست أبدية، عندما عملت ساكانابيا فوق البحر ملت على البحر وملأت راحتي بالماء، رفعتها، اذكر ضياع اللون الازرق، رأيت الماء بين يدي هاتين عاديا.. بلا معنى..

أي جديد يأتي به الشاب!! أيعني هذا انفصال الزرقة عن الماء، كيف، هل تتخفى روح غامضة في اللون الازرق، أكد الشاب قوله، ملأ أيضاً وعاء شفافاً جاء به من الحضر، (زجاجة)، عندما رفعها في وجه الشمس، رآها بلا زرقة، خالفه ثلاثة زويل من العشير المضيفة، ساروا كثيراً بحداء البحر الشمالي الفسيح (الابيض المتوسط)، عملوا طوافين فيه، رأوا الزرقة ملازمة للبحر، أمر خاص به وحده، والا فلماذا لا تصبح الانهار العذبة زرقاء ؟!

* * *

اربعة من المؤمنين بعدم ثبات الزرقة، تركوا أعمالهم، داروا بحثاً عن تزاج، وجدوه ينافس جمعاً من شباب الزويل المعدين

للانطلاق الى عالم الحضر، زعقوا في وجهه

- كيف تثير تساؤلاً وتحسم الجواب..

اصغى. أبدى دهشة.

- سمعك البعض منا تقول بثبات الزرقة..

تلفت حوله، بدا متحرجاً، أي أمر يخشاه، نظر الى شباب الزويل المجتمعين به.

- عندي ما أرغب قوله لي اخواننا..

انتحى ركناً مع الزويل الاربعة.

* * *

«تذكرة تلفظ امام العشائر كلها أول النهار»

بتوجيه من الشيخ الملثم

كل من عمل ساكانابا لا يكذب،

يحظر اتهامه، او التقول عليه.

* * *

واقعة

«وقع زويل العشيرة الأولى، وزويل العشيرة الثالثة حول ثبات زرقة البحر، وعدم ثباتها، وهل يخرج الجند المنتظر من البحر، أو يخرجون من زرقته؟ علا النقاش وثار، قذف أحدهم صاحبه بحجر

أسود مسنون الحافة، اسقطه من وقفه، ومثل هذا نادر، ان يذهب زويلي قبل أوانه بيد أحد رفاقه »..

* * *

من زويلي يعمل في احدى البلاد النائية، استاذا كبيراً بأكاديمية للعلوم، وصلت رسالة، لم يقرأ النص كله، تليت فقرات معينة. يقدم فيها هذا الطواف الزويلي المقيم بعيداً، تفسيراً قائماً على اسس العلوم الحديثة يدرسها ويعمل بها ويطبقها في هذه الاكاديمية البعيدة، في السهرات الليلية دار همس، لقد غضب الساكاناب الاعظم بعد تلاوة الرسالة، وليس هذا الا ظل باهت للغضب الذي أظهره الشيخ صهيج الملثم منه السلام، واكد تزاج في احدى جلساته، (يحرص تزاج عند جلوسه مع أي أفراد زويل أن يوضح لهم ويكرر، أنهم أقرب الزويل اليه، يوحي اليهم أنه يخصهم بأدق أسراره، وفعلاً يذكر دائماً خبراً جديداً في حديثه، ثم يميل هامساً، طالباً إلا يفوحوا به لمخلوق)، إن الزويلي الطواف ذكر ما أغضب الامام، لم يذكر سبب الغضب، غير أن شيخاً زويلياً ذكر أن الطواف المتخصص في العلوم الحديثة، نسي أهله، وما يعتقد به قومه، وفي نهاية رسالته طرح تساؤلاً، ابدي تعجبه من مضمون التوجيه، إذ أن شبانا كثيرين وأطفالاً زويليين ولدوا وعاشوا وذهبوا لم يروا البحر أبداً، لا يعرفون الصور المستثارة في الذهن بعد تلقيه لفظ (بحر) أو (أزرق)، إذ تمضي حياتهم كلها بين الصخور المجدبة، وفوق الرمال، حيث الماء شحيح خال، حيث لا طرح ولا ثمر ...

«توجيه زويلي خاص»

يحضر فوراً أربعة من أشداء الطوافين الزويل، المتقنين لغات عدة، ليأتوا فوراً بالطواف الزويلي متقن العلوم، انتهت مهمته الزويلية...»

* * *

«الحرباب الثالث»

سازل

رأى شباب الزويل المجتمع هنا ظلاً يقترب، قاموا، ابدوا ترحيباً خالصاً، قعد سازل، بدا لامع العينين، هرش شاب رأسه بقطعة خشب صغيرة،

- بصراحة.. لم تعد له هيبة المشايخ..

- كيف!!

يقولها سازل، موجزة، ضنينة، ينظر اليه الشاب..

- شيخنا يكثر من الضحك. لا هم له طوال يومه الا تذكر أيام البعيدة، الحريم اللواتي عرفهن، ذكره لمزايا كل منهن.. دائما يضحك، يقول.. اذكر مرة رقدت فيها الى جوار امرأة.. أذكر التفاصيل.. ثم يحكي..

- ياه..

يتعجب سازل، يصمت، يخط خطوطاً سريعة بأصبعه فوق

الرمال.

- اسمعوا، انتم على وشك طرح تساؤل عظيم.. اراه جنيناً في أحاديثكم.. لكنني أقدر على التنبؤ به..

يبدو الليل ثقيلاً، الرؤوس تتقارب، الجو ينفث برودة، يبدأ حديث سازل هادئاً، ينقلب بعد لحظات حرارة موقدة، لفح نيران وقيظ..

- عند حد معين.. أرى وليس لي حق ابداء الملاحظات لأنني أكبركم بحولين كاملين، (أخيراً، سمح بحق ابداء الملاحظات، بالنسبة لشيوخ العشائر، من قبل البالغين، أي من يستطيعون ملء رحم امرأة، وعلى وجه التحديد، الاعمار الزويلية بين الخامسة عشر والرابعة والعشرين، هؤلاء فقط لهم حق ابداء الملاحظات).

انما أقول ما أفكر فيه، يجب عند حد معين، حول معين، لا بد اقصاء من ارهقه العمر الطويل...

- لكن الشرائع الزويلية..

سازل يضرب الرمال بقبضته.

- شرائعنا دنيوية..

يبدي شاب زويلي حماسه، يغير جلسته مرات،

- نغيرها.. نغيرها..

- بالضبط.. بالضبط.. ما اسمك!!

- هزام..

يشعرون بوجود سازل القوي بينهم، قريب من قلوب البالغين الزويل، دائماً يصغي اليهم، يضحك معهم، يخاطر كثيراً فيوافقهم على آرائهم، ما يعشقه الاصغاء الى شباب الطوافين الزويل العائدين من انحاء الكون الزويلي المفتقد، سازل لم يقرب زويلية قط، قيل أنه لا يقدر، يتقن عدة ألسنة، من حين الى حين يمضي في رحلات غامضة، يرجع بعدها ليخلو بالشيخ الملثم مرات، يقال أن أصحابه لا حصر لهم في سائر الكون.

- انظروا ما يقوله هزام، لم يبد تردداً.. بامثاله يتقدم الزويل، انتم اليوم تبدون ملاحظاتكم حول شيخ عشيرتكم. من زمن قليل، ما تقولونه الآن كان كفيلاً بدفنكم احياء...

تقطر الحكمة من كلماته، يقال انه رأى الدنيا وخبر اقطارها، كل واحد من اصحابه يعرفه بصورة مغايرة، البعض يعرفه طبيباً متبحراً في أمراض الانسان وعلله، آخرون صاحبوه صحفياً لامعاً، وعالماً روحانياً، وربان باخرة تنقل المياه العذبة الى آبار البترول في وسط البحر، قيل إنه يتقن هذا جميعه.. الآن يستفسر هزام:

- لكن..

- اعرف.. ستقول كيف، جاهروا قبل عبور الحد المقرر لكم اعماركم وسيلة، قولوا ما ترغبون، في الليالي الباردة، في أيام الحر، في التوقف، في الطواف، لكنني ارى بعضكم متردداً، لا يحزم أمراً، من يوافقني على ماقلته.. من؟!

رجلان من العشيرة الأولى تهامسا، رأى اولهما «سازل» يدخل خيمة الساكاناب الأعظم، يقضي وقتاً، بل انه لم يره خارجاً، قال الثاني ان «سازل» يمضي اليه دائماً، سازل لم يتحدث عن هذه الزيارات أبداً، لا يذكر ما يدور فيها، فيما عدا مرة واحدة، قال عرضاً وبدون قصد أنه شرب كوباً من جوز الهند، جاء الى الساكاناب من بلاد قصية، الليلة لا يدري أحد ما دار بينهما، يؤكد الرجل أن سازل لم يخرج حتى الآن..

ساكاناب

«منذ بدايات هذا النهار الزويلي المبارك، لن يرى وجه سازل، ارسل في مهمة خفية، لايدري بها غيره هو، شيخنا الملثم منه السلام.

* * *

ساكاناب خاص

.. لقاء مسائي، يخلو مشايخ العشائر الى «الساكاناب الاعظم»، ينقل اليهم ما ارتآه الشيخ الملثم، تحدث الساكاناب عن بعض شباب الزويل، شباب لم يغادر الموطن الزويلي أبدا، عيونهم لا تستقر عند سماعهم لفظ «امرأة» يسهرون الليل، لا هم لهم الا التحدث عن شئون لا تتعلق بواحد منهم، يحشرون آراؤهم حشراً فيما لايعنيهم !! . لكن صفاء الوجد الزويلي، هدوء الجبال، انبساط السماء مستقر زويل الكبير، كل هذا لن يخدش أبداً، هنا أكد مشايخ الزويل أجمعين أن هذا لم يحدث ابدا عند كل منهم، يصغي الساكاناب الأعظم .

أبداً ..

لقد نفذ البصر في احشاء العتمة، كشف الحجب، بأن أعلى الأصوات واحد الاشواك، شاب زويلي اسمه هزام، لكن العيب كله في شاب آخر، قليل الكلام، صموت كثير التفكير، يزن الحرف قبل النطق به، يقلب الجمر مرة اذا ما رأى اللهيب يخبو، اسمه زيفر، امثاله قلة، لكن لا بد من ايضاح كافة ما يتعلق بهم، مولانا الشيخ صهيج الملثم منه السلام يرى ارسال عدد من شباب الزويل في مهام خاصة، كل شيخ عليه اخبار من يتبعه ليرحل بعد شروق الشمس سبع مرات، المزمع بدء طوافهم سبعة، ثلاثة من العشيرة الرابعة، أثنان من العشيرة الثالثة، اثنان من العشيرة الخامسة، هزام لن يسافر، اما زيفر فيقوم الآن بصاحبة شابين جاءا من الاقليم المجاور، (هنا لا بد من الاشارة الى احد الاسرار الزويلية، لقد قسموا العالم الى أقاليم، باعتباره عالمهم، كل أقليم له رقم او علامة تميزه، فالاقليم المجاور يعني مصر والسودان، والاقليم الرابع مثلا يضم الهند وافغانستان وجزيرة سيلان وايران وعدن والامارات العربية وأجزاء من الاتحاد السوفيتي وتركيا، ولشرح بقية الأقاليم ودلالات تقسيمها لا بد من تخصيص جزء كامل لشرح جغرافية العالم الزويلي).

كل من الشبان السبعة سيكلف بمهمة، قد يستغرق أداؤها ثواني قليلة، لكن حتى وصوله الى هذه الثواني ربما يفني عمره كله.

(لا بأس هنا من إيراد نبذة عن « سازل » وطبيعة ما يقوم به بعيداً عن الموطن الزويلي، بعد فترة طويلة من خروجه ظهر في

مدينة « القاهرة »، هيئته انقلبت تماماً، الآن بدون لحية، انيق في ثيابه الافرنجية، الشيء المتبقي من ملامحه، ضحكة خفبة مستورة، في القاهرة يتحدث الانجليزية، والفرنسية، والعربية، يحضر الندوات، يتحدث عن الفكر والأدب، يخالط الشبان كثيراً، تعود الناس ظهور اسمه كثيرا، انتظامه في مقال اسبوعي بصحيفة يومية، ومقال آخر في مجلة شهرية، وكتب تظهر من حين الى حين، حتى تساءل البعض، متى يكتب هذا كله!! عرف باعتباره ابناً لاحد المهاجرين المصريين إلى استراليا منذ زمن، عاد من المهجر، ضاقت نفسه بالبعد عن الوطن، اثر العودة، يتحدث كثيراً عن البلدان الأوروبية طاف بلدان أوروبا كلها، تردد عن انتظامه في خلايا ثورية هناك. ويؤكد هذا مقالاته الدقيقة عما يسمى باليسار الجديد في اوروبا استجوب مرتين في قلم المباحث، لكنه لم يعتقل ولم يمنع من الكتابة ولم تفرض أية قيود على حركته، وباستطاعته السفر الى أي مكان يشاء في القطر، وبأية وسيلة للمواصلات، دعي مرات الى القاء محاضرات، وألقى خطاباً افتتاحياً سبق عرض أحدى المسرحيات بالفرقة القومية، يجلس دائماً مع بعض الشبان في الحي القديم، يسكت فجأة، تتعلق الابصار به، يشير الى أحد الجالسين بالقرب منه، يهمس بحس خفيض « لا يكفون عن مراقبتي »، تتوزع المشاعر بين الخوف والحنق، تعلو ضحكاته..

– هل سمعتم عن أحدث انتاج من أجهزة التليفزيون !! يناقش المميزات والعيوب ، يقول أحد الجالسين ..

– عندنا جهاز ست عشرة بوصة.. لكن يقال أحسن الأنواع ثلاثة

وعشرون ..

يقول جاداً..

- سينما.. سينما فى بيتك..

يتساءل، لماذا يلمع الاسفلت في شارع رمسيس، بينما يبدو خشنا في شارع قصر النيل..

- في الامطار تمشي العربات بسهولة فوق الأسفلت الخشن، تنزلق العجلات فوق الاسفلت الناعم، رأيت عربة اوتوبيس مفصلية ضخمة تنزلق، تتلوى كالثعبان، لم تحدث أضراراً فلم يكن بالقرب منها عربات.. بالمناسبة، هل رأيتم الحروف الجديدة التي بدأت مطابع الصحف في استخدامها، أحسن طبعاً، ياه.. انها تقدم تسهيلات في...

يميل هامساً فجأة.

- انما أحرص عليكم..

في قلب ضاحية المعادي يتخذ مسكناً صغيراً، تحيطه حديقة انيقة، نباتها مخملي يغطي جدران البيت، يتجول فيها خلال الصباح الباكر، يشمر عن ذراعيه، يرتدي قميصاً وبنطلوناً، يزرع الورود، ينسقها، يقتطف الباسم منها، يقول بمرح، هوايتي الحبيبة رؤية الزهور المتفتحة، أرى العالم كله فيها، صفوة أصحابه يزورونه هنا، يسهرون معه، اذ يتقدم الليل، يقدم اليهم طعاماً خفيفاً، شرائح لانشون، بيض مقلي في الزبدة، مربة خوخ، وعند مجيء البيرة يبتهج الشبان كثيراً، ثم يمشي معهم في طرقات الضاحية العذبة

ليلحقوا آخر قطار...

تعليقان

(١) تعليق الدكتور العنتابلي سوس

«أخيراً. ظهر من بمد يده ليلمس أغوارا مجهولة، يكشف واقعاً لم ينكأ أبداً، وعندما اتيحت لي الظروف وقرأت «الحرابية» قبل نشرها، ايقنت أن ظهور العمل بهذه الصورة الى القراء أمر مخل، من هنا اعددت رداً سريعاً، لقد اتيح لي بحكم عملي كاستاذ للتاريخ البشري، ورحلاتي العديدة، فرص نادرة أطلعت فيها على مواثيق زويلية، وانما ارغب الآن في توضيح الأمور قبل اختلاطها.

★ان تطبيق المقاييس العادية عند الحديث عن الزويل، أمر يؤدي الى مغالطات حتمية، ان الدور الذي يقوم به البعض في انحاء العالم، والذي يراه قطاع من الناس مشيناً، ربما يقوم بعض الزويل باداء دور يشبهه، لكنهم لا يرون فيه ما نراه نحن، من هنا لاحظت ادانة المؤلف للدور الحربابي.

★ساهم الدور الحربابي العظيم، في تهوين كثير من الحوادث الجسام على الواقع الزويلي، اسهم اسهاماً كبيراً في تثبيت فكرة اللثام، (يتجسد الاله زويل الكبير في الشيوخ الملثمين، وبمجرد مجيء شيخ جديد ليقوم مقام زويل الكبير، تخفي معالم الوجه، يصبح فقط ممثلا للاه الغائب).

★اسهم الحرابية في سيادة روح اخوية بين الزويل، ما الفكرة التي تحكم العقل الزويلي!! انها انتظار نزول سيد الغمام، لتسود

جموعهم الكون ، ولكن تستمر الفكرة وترسخ ، حتى لا يدركها الوهن، قام الحرايبة، ينفون الخلاف، من هنا اعتبروا زويلا نورانيين، أي صفوة، وهكذا يختار شيخ الزمان الملثم للحرياب « درياد » العظيم دوراً تاريخياً، جعلهٔ يقوم برحلة طويلة رائعة، يقطع الدنيا كلها، قبل « درياد » الغربة عن بوُرة الموطن الزويلي (وهذا صعب وقاس جداً على نفوس الزويل). وبعد انتهاء رحلته لم يرجع اليه، انما أقام في فارس، حتى أتته الوفاة.

★مما يؤكد نورانية المهمة الحريابية، لنر ماذا جرى لاول من طرحوا التساؤلات في التاريخ الزويلي، فازر، أخر ايام الرحلة، نجده بلا ذكريات، لا تربطه بالطفولة صورة، ما من سبب يثير اشتياقه او يحرك الله، يتجرد من ثيابه عارياً، ينادي مولاه الملثم، لم يصغ اليه مخلوق.

★زنيد، صارم القسمات، لم يلفظ حرفاً، لم يناج روحه، بدا أخرس وهو غير أخرس ، لا يعرف في أي لحظات الليل رحل ، تطلق عليه المواثبق الزويلية، « المتسائل المتوحد ».

★زراب، بقي ساهما أبداً، عيناه معلقتان الى قمم الجبال بخيوط خفية ، بعد أن تمت الرحلة ، استجوب طويلاً ، بدت كلماته ملفعة بغموض، يأس غريب، كأنه نادم ويخشى التصريح بالندم.

★عندما أثار تزاج الساكانابي نقاشاً واسعاً، حول زرقة البحر، حرك في الحقيقة ركوداً أثقل العقل الزويلي، حرك ريحاً طيبة، أطلقْ نسمات حتى تستمر حيوية العقل الزويلي، وهنا أبدى ملاحظة حول الطريقة التي قدم بها المؤلف شخصية تزاج، فأقول باختصار لا

تخلو من خبث.

★لم توضع لسازل مهمة خاصة، أقبل سازل على مجالسة الشبان برغم فارق العمر، والنتيجة، اقصاؤه عن بؤرة الموطن الزويلي، وهذا عقاب، وليست مهمة خفية، لن انفي وجود «سازل» في القاهرة لكنه لا يشغل المهنة او المهن المشار اليها، سازل لا تعرفه الحياة العامة مطلقاً، لن أنشر تفصيلات عن موقعه بين الناس، انني أفتعل اثارة، او اختلق معلومات اتباهى باستعراضها.

★ثمة فكرة هامة في فلسفة التاريخ الزويلى المدون، أرى ضرورة الاشارة اليها، انها تغير النظرة الى الظاهرة الواحدة، لنأخذ مثلا واقعة طرح التساؤلات التي خرج من أجلها درياد «ابن بطوطة» إلى العلم، ربى في هذه الاحقاب البعيدة أن «طرح التساؤلات» لن يمس الاساس الزويلي، من هنا وجب الرد عليه، حيث يمس أقدس الزويل، الشيخ الملثم نفسه، غير أن نفس الحادثة بعد مضي وقت قليل او طويل يمكن النظرة اليها نظرة مغايرة تماماً، باختصار، لا حقيقة ثابتة في الناريخ الزويلي كل الوقائع تتغير، تتبدل، من هنا نرى المؤلف تناول الاحداث في ضوء نظرة ثابتة، بينما وجب عليه ليستكمل الحقيقة، أن يعرض الوقائع ذاتها في ضوء أكثر من نظرة، من هنا تسقط كافة المعاني المستخلصة، الموحى بها من خلال الاحداث، الا اذا اعتبرنا الاستاذ جمال الغيطاني، يعبر عن وجهة نظر خاصة جداً، لا تطرح الا باتساق عضوي مع جانب زويلي، وهذا ما لا أخوض فيه.

(٢) « تعليق الدكتور فتحي السرنجاوي »

.. أقصر حديثي على نقاط عدة، أوردها الدكتور العنتابلي سوس، أرى فيها مغالطات بينة.

لا أرى عنصر المعاناة في حياة درياد «ابن بطوطة»، لقد رحل عن حياته الزويلية الشاقة حيث الزاد شاحب، والماء مفتقد، والمأوي صلب، طاف الدنيا، ذاق نساءها، اكل ثمارها وركب بحارها، ثم بقي مصوناً في كتاب معروف، يتناقله المتخصصون وغيرهم، أي معاناة في هذا!!، لقد بلغ درياد «ابن بطوطة» ذروة رفيعة في اداء دوره الحريابي، عندما نقرأ حسراته وحنينه الى صفرة الرمال في بؤرة الموطن الزويلي، وعيون الصغار الزويل، فعلا قمة في الحريبة، الاجدر بالدكتور العنتابلي سوس عن أن يتحدث زنيد، كيف مات المتسائل المتوحد، صاحب الوجه الصلب والعينين القاسيتين، اما زراب الوحيد الذي بقي محتفظاً ببعض من وعيه، فبعد انتهاء الرحلة واستقرار درياد «ابن بطوطة» في فارس، امر الشيخ الملثم باطعامه الثار الزويلية، تورم زراب، سمن، تضاعف حجمه، اختفى بعد شهر واحد، وفي فترة لاحقة ظهر ساكاناب زويلي غريب، يمجد فازر وزراب وزنيد، يعتبرهم حرايية مخلصين، ضحوا بأعمارهم لتنفيذ فكرة، واثبات أمر زويلي مقدس، ورويت قصص وحكايات عن صلابة زنيد، وقوة زنيد، احتمال زراب ورهافة روحه، اعتبروا مثلا يرتجي امام الشباب الزويلي، ثم تغير هذا كله فيما بعد..

لم يقصد تزاج الى تجديد حيوية العقل الزويلي، ابداً، لقد أثار قضية «زرقة البحر» بتوجيه من الساكاناب الأعظم، وعلم مسبق من الشيخ الملثم ذاته، توجد اغراض أخرى لا يمكنني التحدث عنها، لان الحياة الزويلية غامضة القوانين، والعوامل الخفية والظاهرة، لكن يمكن القول بدون التعرض لتفاصيل، ان قضية «زرقة البحر» هدفت الى اهدار طاقة العقل الزويلي.

لعب سازل دوراً خطيراً في تسطيح العقول الزويلية، وما اباحة ابداء الملاحظات للاعمار المحصورة بين الخامسة والرابعة والعشرين الا وسيلة لكشف من لا يستحب وجودهم في بؤرة الموطن الزويلي ونظراً لبراعة سازل، وحنكته واحاطته بعلوم كثيرة، وعدة لغات، ارسل في مهمة زويلية كطواف عتيد تتصل بمهامه في بؤرة موطنه، أنا أجهل الاسم الذي يعيش به سازل بيننا، لكنني أناشد الاستاذ جمال الغيطاني، أن يعلن اسمه، حتى نمنعه من اداء دوره الخطير، وإلا سيطحن شبابنا طحناً مضنياً، وإن كنت أشك في اعلان المؤلف اسم سازل الحقيقي، ولا يمكنني نفي خاطر بذهني، كيف توافرت هذه المعلومات كلها لديه ؟!

طبع بالمطبعة الفنية ت: ٩١١٨٦٢

جمال الغيطاني

الأعمال الروائية

- أرض .. أرض .
- الحصار من ثلاث جهات .
- الرفاعي .
- الزيني بركات .
- وقائع حارة الزعفران .
- خطط الغيطاني .
- الزويل .
- ذكر ما جرى .
- حكايات الغريب .
- أوراق شاب عاش منذ ألف عام .

مكتبة مدبولي

٦ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ت : ٧٥٦٤٢١

تنفيذ : المطبعة الفنية ت : ١٨٦٢